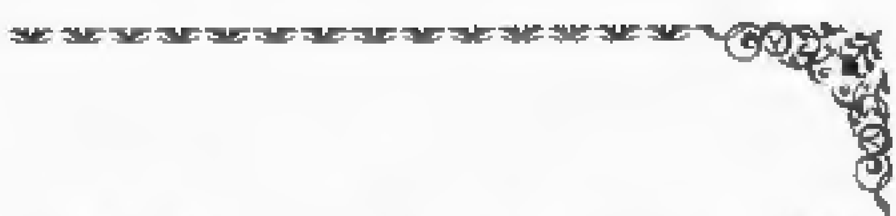
أخى العزيز
من فضلك
اذا اعجبك الكتاب قم بشرائه



الدعوة إلى الله



الناشر: دار الفاروق للنشر والتوزيع

الحائزة على الجوائز الآتية

جائزة أفضل ناشر ثقافي عام في مصر لعام ٢٠٠٤

جائزة أفضل ناشر للأطفال والناشئة في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر مدرسي في مصر لعام ٢٠٠٣

جائزة أفضل ناشر للترجمة من وإلى اللغة العربية في مصر لعام ٢٠٠٢

جائزة الإبداع في مصر لعام ٢٠٠٢ (الجائزة الذهبية)

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠١

جائزة أفضل ناشر علمي وجامعي في مصر لعام ٢٠٠٠

المركز الرابع كأفضل دار نشر على مستوى العالم

في مجال الترجمة في معرض فرانكفورت عام ٢٠٠٠

وسط البلد: ٣ شارع منصور - المبتديان - متفرع من شارع مجلس الشعب

محطة مترو سعد زغلول - القاهرة - مصر.

تليفون: ٧٩٥٣٠٢٢ (٠٠٢٠٢) - ٧٩٤٢٢٠٣ (٠٠٢٠٢)

فاكس: ٧٩٤٣٦٤٣ (٠٠٢٠٢)

العنوان الإليكتروني: www.darelfarouk.com.eg

حقوق الطبع والنشر محفوظة

لدار الفاروق للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ٢٠٠٥

عدد الصفحات ٢٢٤ صفحة

رقم الإيداع ٨١٢٥ لسنة ٢٠٠٥

الترقيم الدولي: 977-345-938-1

الدعوة إلى الله

فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر
جاد الحق علي جاد الحق
رحمه الله

التعريف بالإمام الأكبر

فضيلة الشيخ جاد الحق

مولده ونشأته:

هو فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق، حنفي المذهب، ولد بجهة بطرة مركز طلخا محافظة الدقهلية في عام ١٩١٧م، حفظ القرآن الكريم وجوده بعد أن تعلم القراءة والكتابة بكُتاب القرية، ثم التحق بالجامع الأحمدي بطنطا في سنة ١٩٣٠م واستمر فيه حتى حصل على الشهادة الابتدائية في سنة ١٩٣٤م وواصل فيه بعض دراسته الثانوية، ثم استكملها بمعهد القاهرة الأزهري حيث حصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٣٩م، بعدها التحق بكلية الشريعة وحصل منها على الشهادة العالية سنة ١٩٤٣، ثم التحق بتخصص القضاء الشرعي في هذه الكلية، وحصل منها على الشهادة العالمية مع الإجازة في القضاء الشرعي سنة ١٩٤٥م.

- **مناصبه:**

عمل فور تخرجه موظفًا بالمحاكم الشرعية، ثم أمينًا للفتوى بدار الإفتاء المصرية، ثم قاضيًا في المحاكم الشرعية، ثم تدرج في القضاء بعد إلغاء المحاكم الشرعية حتى أصبح مفتشًا أول بالتفتيش القضائي بوزارة العدل.

- **منصب الإفتاء:**

عين فضيلة الإمام مفتيًا للديار المصرية عام ١٩٧٨، فكرس كل وقته وجهده في تنظيم العمل بدار الإفتاء، وعمل على تدوين كل ما يصدر عن الدار من فتاوى في تنظيم دقيق حتى يسهل الاطلاع عليها عند الحاجة في أقل وقت ممكن، ثم توج

عمله بإخراج الفتاوى التي صدرت عن الدار في قرابة ثمانين عامًا من سجلات الدار حتى تكون في يد كل مسلم يريد الاطلاع عليها والاستفادة منها.

• وزارة الأوقاف ومشيخة الأزهر:

في يناير من عام ١٩٨٢ اختير فضيلته وزيراً للأوقاف، وفي نفس العام صدر القرار الجمهوري بتعيين فضيلته شيخًا للأزهر.

• إنتاجه العلمي:

لفضيلته العديد من الأحكام القضائية التي اشتملت على بحوث واجتهادات فقهية أخرجها طوال عمله بالقضاء، وكذلك البحوث الفقهية والتقارير الفنية في التفتيش على أعمال القضاة.

وقد تم نشر هذه البحوث في مجلة المحاماة الشرعية وغيرها من المجلات.

أما الفتاوى فثابتة بسجلات دار الإفتاء وبها مجموعة من الفتاوى الخاصة بأمور مستحدثة لم تطرح للبحث من قبل.

هذا بخلاف الأبحاث المطولة التي قدمها فضيلته في المؤتمرات التي شارك فيها أو التي ترأسها.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فبتوفيق من الله عز وجل جمعت المقالات والأحاديث التي كتبها صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الشيخ/ جاد الحق علي جاد الحق شيخ الأزهر الشريف، وقد سجلت هذه الأحاديث لمحطات الإذاعة المرئية والمسموعة المختلفة منذ أن تولى فضيلته مشيخة الأزهرعام ١٩٨٢م. كما أن بعض المقالات نشرت في الصحف اليومية والمجلات المختلفة وبعضها الآخر مازال محفوظًا.

وقد وردت مكاتبات من جهات مختلفة تطلب جمع هذه الموضوعات وطبعها في كتب حتى تكون متداولة بين الناس ويمكن الاستفادة بها كتراث مفيد، وكان هذا في الاعتبار حيث قام مكتب فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر بجمع هذه الموضوعات وترتيبها وإعدادها وتجهيزها وتبويبها وبعد إذن وموافقة فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر تم تقسيم هذه المقالات إلى مجموعات تحمل كلها عنوانًا عامًا واحدًا (أدعُ إلى سبيل ربك) وكل مجموعة تحمل عنوانًا خاصًا.

فهذا الكتاب هو الأول: بعنوان: (الدعوة إلى الله)، والكتاب الثاني: بعنوان: (النبي في القرآن)، والكتاب الثالث تحت عنوان: (أخلاقيات).

وقد سبق أن المكتب أصدر لفضيلته سلسلة أخرى تحمل العناوين الآتية: (الفقه الإسلامي - مرونته وتطوره)، (مع القرآن الكريم في شهر رمضان)،

(أحكام الشريعة الإسلامية في مسائل طبية عن الأمراض النسائية)، وسلسلة أخرى بعنوان: (بحوث وفتاوى إسلامية في قضايا معاصرة) وقد صدر منها خمسة أجزاء، ويعد الآن لإصدار الجزء السادس وما يليه - إن شاء الله.

أما الكتاب الأول الذي بين أيدينا، فيشتمل على موضوعات في الاقتصاد الإسلامي وأسسه في القرآن الكريم، وهموم المسلم المعاصر من منظور إسلامي، وحقوق الإنسان من منظور إسلامي، والأقليات الإسلامية، ورعاية الإسلام للمصلحة وتيسيره على الناس.

والإسلام كرسالة عالمية يخاطب الناس جميعاً على أساس العدالة والمساواة والمصالح المعتبرة في الإسلام ومنهج التدين في الإسلام ودور المسجد في التوجيه الاجتماعي للمجتمع المسلم والإسلام والسلام مع الله ومع النفس ومع الناس.

ويعرض كذلك لدعائم الوحدة بين المسلمين وحرص الإسلام على طهر الغاية وشرف الوسيلة والعقيدة وأثرها في الإصلاح والأمومة في الإسلام والأموال واستثمارها في الإسلام وصور من يسر الإسلام وآدابه والعلم والتعليم في الإسلام وأهمية النية في الإسلام ونظرة الإسلام إلى المال والعمل.

ويعرض أيضاً لتكريم الله للإنسان وحرمة قتل الإنسان إلا بالحق وكيف يكون المسلم مع خالقه ومع مجتمعه وحق الطريق ويذكر وسائل بناء الشخصية في الإسلام وكيف أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأن قوة الأمة في وحدتها.

ويتناول أيضاً واجب الأزهر في نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة ودور الأزهر في تحقيق التآلف والتضامن بين الشعوب الإسلامية ومشاركة الأزهر في صياغة نظام إنساني عالمي وحوار الثقافات العالمية ودور الأزهر فيه.

مما سبق، يتضح أن فضيلته تحدث في موضوعات شتى تهم كل قارىء وتفيد كل باحث، وتثري المكتبة الإسلامية.

أسأل الله تعالى القدير من فضله العظيم أن تكون هذه السلسلة مما يعم بها النفع، وأن يجزي فضيلته خير الجزاء، وأن تكون في ميزان حسناته ومن عاونه.

وسيتوالى - إن شاء الله - إصدار هذه الأجزاء.

والله من وراء القصد.

وكيل الأزهر

(أحمد السيد أحمد مسعود)

الدعوة إلى الله

ألقي الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق كلمات هادفة في مناسبات إسلامية جهيرة، كان لها سبيلها الواضح في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما كتب عدة مقالات تنحو هذا المنحى في ظروف تتطلب الهداية الموجهة، والإرشاد المصلح، فكان ما ألقاه وما كتبه موضع اهتمام ممن سمع ومن قرأ. وتوالت الرسائل من شتى الجهات تطلب هذه التوجيهات، فكان صاحبها الكبير يرسل صوراً منها لمن سأل، ثم رأى أن يجمع بعضها في مجموعة متصلة تغني عن الإرسال المنقطع، لتكون في ائتلافها المتماسك أيسر سبيلاً إلى القراء، ولتؤدي دورها الهادي في إيقاظ الوعي وإذكاء الهمم وتنوير الأذهان وأقول تنوير الأذهان عن عمد لأنّ لفظ التنوير اليوم قد بُعد عن سبيل الحق في كثير مما يعزى إليه، فالتنوير من النور، ولن يكون إلا من مشكاة كتاب أرسله الله نوراً للناس، وحدد معالمه إذ قال جل شأنه

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ۝ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝ ﴾[١]

---

(١) الآيتان ١٥، ١٦ من سورة المائدة.

وإذ كان هؤلاء يذكرون الأستاذ الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ في طليعة من يدعونهم من أصحاب التنوير، فلماذا لا يسلكون سبيله في الدعوة إلى دين الله والعمل على إقامة الشرع الإسلامي في ظل وارف من كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد الأئمة الأحبار ممن فقهوا الدين على وجهه الصحيح؟

هذه خاطرة سنحت لأدنى مناسبة وأعود إلى هذه المجموعة، فأجدها حقلاً نضيراً يجمع الثمر الهنيء متشابها وغير متشابه، وهي في أبوابها ذات مضمون متحد، ولكنها في تنسيقها التأليفي في كتب منفصل الفصول تدعو إلى تقسيم متقارب، بحيث يبدأ القارئ بكلمات ذات طابع عام عن الإسلام بمعناه العام، ثم يجد كلمات تالية ذات خواطر قرآنية تستمد معانيها من كتاب الله، ويثلث بمجموعة تتحدث عن السلوك الخلقي كما عده الإسلام وقد قلت إن المضمون العام متحد، وأن الروح الدينية الشائعة لا تمنع أن يندرج بعض في بعض، ولكن محاولة التقسيم أهْدى إلى إنارة القارئ، وتبصيره بما يُعين.

ففي المجموعة الأولى، يجد الدارس قبضاً من المعاني يعين على تحديد رأي الإسلام في مختلف الآراء المتضاربة. وقد يلحظ الناقد سهولة الأول ويسر التعبير بالقياس إلى ما يذْري عن الإمام الأكبر مع بعد الغوص ودقة الخوض في فتاويه الفقهية لأنه في المجال الثاني يخاطب فقهاء أجلاء، ويحرص على استنباط المجهول من المعلوم وهو في المجال الأول يحرص على أن ينتفع كل قارئ ـ أيًّا كان مستواه العلمي ـ بما يقرأ من التوجيهات لذلك يسر حديثه شفافاً رائقا يرده الضمىء فيرتوي مستريحا وقد عني من هذه الكلمات ما تحدث به الإمام عن هموم المسلم المعاصر وعن حقوق الإنسان في المنظور الإسلامي وعن تطبيق الشريعة الإسلامية وعن دعم الأقليات المسلمة في شتى بقاع العالم شرقيه وغربيه، لأن هذه الموضوعات ذات رنين مؤثر في قلوب المسلمين جميعاً!

ففي الحديث عن هموم المسم لمعاصر وملامح هذه الهموم من منظور إسلامي، أشار لأستاد لأكبر في سرة اسة إلى ما رزعه الاستعمار في أرض المسمين من مواطنين هم أشد على لشعوب الإسلامية ظلمًا وفتكًا من سالفيهم، إد دعوْ إلى الثقافة الوافدة، والتعريب لدخس، قصدً إلى انحر ف المسلمين عن عقيدة الإسلام، وقد نجح هؤلاء في تفريق الكلمة و صفاء زعمت تبحث عن مصمعه الشخصية وتتخد لشعارات سبيلا إلى بث الفتن وإثارة الانقلابات؛ فوقعت لواقعة وصار بأس المسمين بينهم في ديارهم شديد، تحسبهم جميعً وقلوبهم شتى.

يقول الإمام الأكبر

ومن هنا، تعمقت لخلاف، ووجهت المساعدات، فتساقط البعض في فتنة المال، والبعض في فتنة السلاح الدي أغرى حمليه إلى استعماله في إثاره الفتن، وإشاعة الخوف والاضطر ب في صفوف الشعوب الإسلامية، وراحوا مع هذا يشوّن بدور الفتن والشك في الثقافه لشغل الناس بما فسوا به عن لنشاط المثمر، وتعمقت لخلافات لفرعية والمدهبية، وكانت لجماعت والجمعيات المتخالفه والمتخاذلة".

ومضى الحديث متابعًا عن الو قع الاجتماعي، إد لم يكنْ يُوفر حظا من لوافع السياسي، حيث انخلع المسلم عن مُثل لإسلام، وانفرط عقد الأسرة، وفقد لتـر حم و لتو د، ثم كانت الصامة في الواقع الاقتصادي حيث غلب النظام الاشتر كي في أكثر دول العالم لإسلامي، مع أن المسلمين لديهم نظامهم لتشريعي زراعة وصناعة وتجارة واقتصاد

هذا بعض ما قيل عن هموم المسلم المعاصر. أما ما كتبه الإمام الأكبر عن حقوق الإنسان في المنظور الاسلامي، فهو مع سهولته لواضحة دسم عزير المادة،

إذ بدأ بعرض ما يقوله رجال القانون من أن حقوق الإنسان والحريات العامة لا تدخل ضمن الحقوق القانونية، لأن الحق بمعناه القانوني لديهم يقابله الواجب، وهو غير متوافر في حقوق الإنسان. وقد ناقش الإمام ما يعنونه من كلمة الحق لينتهي إلى ما قرروه من أن بعض الحقوق الشخصية مثل حرية الاعتقاد وحرية الاجتماع وحرية التعاقد تفقد مقومات الحقوق بالمعنى الدقيق؛ لأنها تثبت للناس كافة دون اختصاص بعضهم بها على سبيل الإيثار. ومن هنا، تكون تسميتها حقوقًا من باب التجاوز في التعبير!

هذا لبُ ما يعنيه أصحاب القانون الوضعي في مفهومهم الخاص بالحق. وقد دفعه الإمام الأكبر بقوله: "أين منطق الدراسات الإسلامية في حقوق الإنسان؟ إذ الملحوظ منها أنها تتضمن التزامات أو واجبات على طرف يكون في ضمنها مصالح وحقوق لطرف آخر. فالأمر بأداء الأمانات إلى أهلها أوجب حقًا لأصحاب الأمانات أن تؤدى إليهم، والنهي عن بخس الناس أشياءهم يتضمن تقريرًا لحق الآخرين أن تحفظ عليهم أشياءهم، والنهي عن قتل الإنسان بغير نفس أو فساد في الأرض يتضمن بدلالته حقًا لكل نفس أن يحافَظ عليها وألا يسفك دمها في غير قصاص." ومضى الباحثُ يعْرض أمثلة شتى من الإحسان، ومسؤولية الحاكم وحق الرعية ومبدأ عدم الإكراه في الدين، إلى أن قال: "وأول من نبه من علماء المسلمين على قيام العلاقات بين الناس على أساس رابطة من الحقوق والواجبات هو الإمام الغزالي في كتاب "إحياء علوم الدين" منبهًا إلى أن فكرة تكريم الإنسان وهي القاعدة التي أقيمت عليها حقوق الإنسان في هذا العصر أساسية في الشريعة الإسلامية، وأن المصالح والمنافع والرخص والمباحات التي تضمنتها نصوص الشريعة لصالح الفرد والمجتمع يسوغ أن تسمى حقوقًا للإنسان في لغة العرب، لا سيما في ميادين الحرية والمساواة والشورى والأمن والتعاون على البر

والتقوى، بل يكفي أن يكون عنوان حقوق الإنسان في الدراسات الإسلامية قول الله

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1]

أما صيحة الإمام الأكبر الحازمة التي نشرها تحت عنوان "تعالوا إلى كلمة سواء"، فقد كشفت ما أحدثه العلمانيون من بلبلة فكرية، حين تحدوا رغبات الأمة جميعها في ضرورة تطبيق أحكام الشريعة، وتذرعوا أسباباً لا تمت إلى البحث المنهجي بسبب. وهؤلاء جميعاً لا يعرفون عن فقه الشريعة ما يتيح لهم أن يتحدثوا عنها في قليل أو كثير، وقد خدعوا فريقاً من الناس واسترهبوهم بما خلعوا على أنفسهم من ألقاب لا تمت إلى الحقيقة بسبب، إذ أطلقوا لفظ "المفكر الإسلامي" "والمجدد الإسلامي" وأمثال هذه النعوت الكاذبة على من لم يعرف عن الإسلام غير الهتاف بتنحيته عن التشريع، ومن يظن أن المسيحية كالإسلام دين لا دولة، مع أن كتاب الله واضح لا اشتباه فيه. وعاونتهم الصحف اليومية في نشر مقالاتهم المخصصة دون أن تسمح بالرد عليها لمن يملكون التصويب والتسديد؛ لذلك، كان الإمام الأكبر واضح الاتجاه حين صاح في وجوه هؤلاء قائلاً:

"هذا الجدل الصارخ الذي نعزل عن الطريق الحق عندما نحا بالقضية - قضية تطبيق الشريعة الإسلامية - إلى سبيل من الصدّ عن سبيل الله وعن الاستقامة إلى تحريف متعمّد للمفاهيم والقيم الإسلامية، حتى لقد بلغ ببعض

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

لكتاب أو لمحورين المجاور بأن قال إن حدود الإسلام وأحكامه شُرعت لتعقيد الإسلام، وقد تجاوزته الحياة الحاضرة بمعضلاتها وحضارتها"

إلى أن يوجه القول إلى القائمين على أدوات الإعلام من صحافة وإذاعة وطبع ونشر فيسألهم حائراً: هل راعيتم حق الله و الوطن حين تثيرون هذه الحملة الضالة على الشريعة وتصنيفها وتأخذون سوء التطبيق أو انحرافه في بعض البلاد مثلاً على عدم صلاحيتها؟ فذهبتم تحرفون الكلم عن مواضعه بعلم أو بغير علم، وغاب عنكم أن هذا الشعب المتدين - مسلمين ومسيحيين - لا يرضى منكم ولا لكم هذا، بل إنه ليسوءه أن يهوي المعاول لهدم دينه وشريعته، بل وحدته التي عت في كل الأزمات والملمات.

وفي كلمات الأستاذ الأكبر حول هذا الموضوع في شتى المناسبات الرسمية - وكانت تتألق في الصحف اليومية بمكان بارز - لا يخفى على قارئ ينشد الحقيقة، في هذه الكلمات ما يكفي لردع الهجمة الضارية على الشريعة من أناس لا يعرفون شيئاً عن جوهرها الصحيح وهم في أنظار أنفسهم "مفكرون إسلاميون" وفيهم من يعرف ولكنه يجحد الحق لحاجة في نفس ذات التواء.

ولا يقل تأثيراً ونفاذاً عن هذه الصيحة المدوية ما ردده الإمام الأكبر كثيراً بشأن الأقليات الإسلامية وحل مشكلاتها من جانب العالم الإسلامي ويقيني أن كلمات الإمام الأكبر تفسح الطريق إلى دعوة مؤتمر عام يجمع ممثلي الإسلام من شتى بلاده، ليرصدوا مأساة هذا الهجوم الوحشي على دول إسلامية كل آثامها أنها تتمسك بدين الله، ولا تسيء إلى أحد، وقد مضى زمان كانت أوروبا فيه ترمي الشعوب الإسلامية بالتعصب بغياً دون حق، حتى قال شاعر النيل حافظ إبراهيم

أو كلما باح الحزين بأنةٍ　　　أمْسَتْ إلى معنى التعصب تنسب

مصى هذا الزمن، حين سفرت أوروب ليوم عن وجهها، وأيدت العدوان الساطر على بلاد الإسلام، بل ساعدت على استمراره واشتعاله بما يجعل كلمة التعصب هون كلمةً تقال في هذ السلوك الهمجي لشائن، وسيعلم لذين ظلموا، أي منقلب ينقلبون.

أما الخواطر القرآنية ـ وهي القسم الثاني في لمجموعة ، فقد تعمد الإمام لأكبر سبيل السط لميسر في محاها لفكري، إذ خطب بها لمستمعين في شتى بلاد لإسلام، حين تحدث عن أدب لدعوه كما علم الله رسوله في كتابه العزيز، وحين تحدث عن المنحى الأخلاقي في القرآن، وعن الإنسان كما صوره الكتاب العزيز سلوكًا وافداء، وعن خُطوط الإنقاذ من الموبقات كما وضحها القرآن الكريم. وفي نطاق هذه لخواطر القرآنية، أفسح المجال للحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ كما جاء في كتاب الله، وعن رحمته بالمؤمنين، ومعجزته الخالدة على مر الاجيال ولم ينس ـ وهو لفقيه الحجة ـ حين تحدث عن فريضة الصلاة على رسول الله ـ ﷺ ـ أن يذكر قول الأئمة بهذا لصدد. فأشار إلى آراء مالك بن أنس والشافعي وأبي جعفر الصادق إشارة المؤيد لمجيد. ولا يتسع لمجال لبسط ما تضمنته هذه الفصول من فوائد، ولكني أقف عند بحث فهم سماحة الإمام الأكبر تحت عنوان "مفاهيم حول القرآن ـ لتفريط والغلو"، إذ جاء هذا البحث على سهولته لشفقة، حاويًا لما قاله الأخلاقيون عن النصرية لوسط في الميزان لحقي، دون أن يرهق السامع بمصطلحات فلسفية لا داعي لها في هذا المجال، بل تحدث عن لمعاني المحددة، من مثل ألفاظ التفريط والإفراط والغلو والاعتدال، موضحًا مراتب لاعتدال في أدناها وأعلاها وأوسطها، ومستشهدًا لكل مرتبة بما جاء في القرآن لكريم والحديث لشريف ومؤكدًا ضرورة الالتزام بالوسط النافع أما ما جلاه لشيخ الأكبر من حديث الغلو ومظاهره، فقد اتضح في قوله بتصرف يسير

"قد يكون الغلو في الدين بسبب المبالغة في الاندفاع بقوة ودون بصيرة طلبًا لنوال أعلى الدرجات في الدين، وغالبًا ما يرافق هذا الاندفاع حركة متسرعة واضطراب في الرؤية والفكر وفساد في التصور، وقد يكون الغلو في الدين بسبب سوء الفهم لحقيقة الدين؛ إما من اجتهادات لمغالي أو اجتهادات معلمه وقائده. ومن هذه المغالاة إدخال الرأي الشخصي في قضايا الدين وأحكامه وشرائعه، دون أن يتأهل لذلك بالعلوم والأدوات المناسبة وقد تأتي المنافع الدنيوية مع الرغبة في احتلال مركز التقدير، مضافة إلى ذلك، وبعض الغلاة في الدين يعملون على إفساد مفاهيمه والانحراف عنها، ومن ثم كان الغلو في الدين خروجًا عن حدود الله. ثم اتبع ذلك حديث هادف عن التفريط والغلو في العقائد وعن التهاون في الواجبات والتفريط فيها. وقد وقف الإمام أمام الحدود وقفة بصيرة، حيث قسمها إلى مستويين، أحدهما يكون بعدم الاقتراب منها وذلك بالحذر والورع.. وثانيهما يكون بعدم تجاوزها، إذ أن من دخل الحد، يحكم عليه بالتجاوز حتمًا.

يقول الله عز وجل

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾(١)

أما ما ذكره الإمام من مظاهر التفريط في الأحكام الشرعية عن طريق التلاعب بالنصوص أو متابعة للأهواء وعن طريق تتبع الآراء الاجتهادية الضعيفة التي لا سند لها، والأخذ برخص المذاهب لمجرد التخفف من تبعات التكاليف، فذلك اتضح للقارىء المنصف دون أن يداخله أدنى ريب. وأقول للقارىء المنصف ـ لأن من القراء من ضرب الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فحاد عن

(١) من الآية ١ من سورة الطلاق.

الصراط لقويم. ومحاوله تلخيص هذا البحث الجاد في هده السطور القليلة لا تجد غير التنبيه إلى أصله المسحل مي صفحات الكتاب ومي ذلك كفاء.

بقي لقسم الثالث "وهو أحاديث السلوك الإنساني في ظل الإسلام وقد جاء على سعته الشامبة مبسطًا سهلاً هيناً، لأن دروس الأخلاق الإسلامية تتطلب مراعاة عقول الناشئة من المراهقين والفتيات، حتى يهضموا سنن الإسلام في التوجيه لخلقي. ونحن نعهد نفراً من دارسي الأخلاق في هذا العصر يمئون الصفحات باراء أفلاطون و أرسطو ونفر من فلاسفة الإسلام مي قضايا الخير والشر والجبر والاختيار. فيغوص القارىء في نظريات جدلية فلسفية، إن أمتعت عقله فقد نبت عن استجابة وجدانه. كما نرى نفرا اخر يرهقون القارىء بدسامة ما يغوص عليه في هذا البحر الهائج. وكتاب الإحياء للغزالي عىى جلاله قدره، وحصوبية ثمره كتاب الخصة وحدهم، لذلك جاء حديث الإمام الأكبر عن الحلم والحياء والنصح والتواضع وحسن الجوار وذل المسألة وعيادة المريض والاحتكار وادب البيع والشراء والصدق والكذب والوفاء والاستئذان والتفاؤل والتشاؤم والرحمة والإيثار وإفشاء السلام مما يصلح أن يكون مقرراً دراسياً لطلبة المعاهد الدينية. لأننا في عهد الطلب الغابر لم نجد دروساً للأخلاق الإسلامية تستقل بمنهج خاص، بل كانت تلوح على أبعاد في دروس التفسير والحديث. ولو اهتم بها المنهج الدراسي اهتمامه بدروس الفقه والنحو والصرف لساعدت على بناء شخصية إسلامية ذات صلابة وإيمان فهل يستجيب المسؤولون عن المنهج في المدارس والمعاهد جميعاً بالجمهورية المصرية وسائر البلاد الإسلامية إلى اقتراح يجعل دروس الأخلاق ذات منهج مستقل لينشأ الطالب على السنن الحميدة وتقيه عثرات البيئة الجامحة ذات الإعلام المنحرف، في أكثر ما يقرأ ويرى ويسمع! هذا ما أرتجيه.

وإيماءً لنموذج مما تحدث عنه الإمام الأكبر في هذا المجال، استشهد بما كتبه تحت عنوان فلنحرب هذا الداء إذ اتخذ منذره الهادي من قوله عز وجل

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾(1)

فقال بصدد هذا النص الكريم

﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون ۝ أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ۝ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ۝ ﴾(2)

"ونحن المسلمين نواجه في هذا العصر فتنًا كقطع الليل المظلم تواكبت معها المحن، حتى تفرقت بنا السبل، ولم نعد نفرق بين النفع والضر انبهارًا بالمادة حتى انصرفت همتنا إلى تحصيل ما لا بقاء له. وغاب عنا أن في طهارة النفس ونقاء الروح وتقوى الله الوقود الذي لا يفنى، وصولا إلى السعادة في هذه الحياة، ويوم نلقى الله إيمانًا بوعد الله الذي لا يتخلف في قوله تعالى

---

(1) الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

(2) الآيات ٩٧-٩٩ من سورة الأعراف.

إلى أن قال

وإن هذا الدواء من عُنصُرين ـ الإيمان والتقوى.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[1]

فالإيمان استمساك بعقيدة الإسلام، بكافة عناصرها وأصولها وفروعها، والتقوى التزام في الأداء بحدود آداب الإسلام، وبما في هذا من تحمل المسؤولية التي أجملها الله في قوله

﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[2]

وبعد، فهذه مقدمة لكتاب حافل لا تغني القارئ عن استيعابه ولكنها تبعث فيه الرغبة إلى قراءته المتأنية في يقظة واعية، وتفهم رشيد.

د. محمد رجب البيومي

---

(١) الآية ٩٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم.

الاقتصاد الإسلامي وأسسه في القرآن والسنة

نحمد الله الذي شرع للناس ما فيه صلاحهم ونصلي ونسلم على محمد رسول الله ﷺ الذي أرسله ربه إلى بني الإنسان كافة بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً؛ فبين لهم عن ربهم ما يهديهم إلى طرق معايشهم واستثمار كل ما خلق الله لإسعادهم، كما قال سبحانه

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[1]

وقال

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]

فكان على الناس أن يستثمروا وأن ينتفعوا بذلك كله وأن يعمروا هذه الأرض، بل يعمروا الحياة عليها. كما أشار القرآن في قوله تعالى

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾[3]

---

(١) الآية ٢٩ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١٣ من سورة الجاثية.
(٣) الآية ٦١ من سورة هود.

أي طالبكم بعمارتها بالإصلاح والتنمية من زراعة وتجارة وصناعة واستخراج ما حوته الأرض في باطنها وما احتوته البحار.

وإذا كانت دراسة الاقتصاد في عصرنا كعلم ينظم الثروة من حيث الإنتاج والاستبدال والتوزيع والاستهلاك والصيانة، على وجه يسد حاجة الأفراد والجماعات، فإن هذه الأهداف قد سبقها القرآن حيث حث الدعوة إليها، بل والأمر بها في كثير من الآيات

من ذلك قول الله سبحانه وتعالى

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ۝ ﴾[1]

وقوله تعالى

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾[2]

وهذه هي السنة الشريفة زاخرة بالدعوة إلى العمل والإنتاج

وفي مثل هذا قول رسول الله - ﷺ - «ما أكل أحد طعامًا خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود - عليه السلام - كان يأكل من عمل يده»[3] وقوله

---

(١) الآية ١٥ من سورة الملك.

(٢) الآية ١٠ من سورة الجمعة

(٣) رواه البخاري.

«ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[1]

ولقد تحدث القرآن عن البيع وعن التجارة كوسيلتين لتبادل الإنتاج والمنافع، نرى هذا واضحاً في قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[2]

وقوله تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾[3]

ونبه القرآن إلى مواجهة الأزمات والكوارث بادخار الفائض في الميسرة ووفرة الإنتاج، جاء ذلك جليا فيما حكاه الله عن صنيع سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ حين نصح عزيز مصر بالادخار من سنوات اليسر إلى سنوات الجدب والقحط، على ما يشير إليه قوله تعالى

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) الآية ٢٧٥ من سورة البقرة.
(٣) الآية ٢٩ من سورة النساء.

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾[1]

وحارب القرآن كذلك الإسراف و الإتلاف ودعا إلى الوسط فقال

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[2]

وقال

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3]

ولأن المال واستثماره أمر تقوم به الحياة، نبه القرآن إلى صيانة الثروة وحفظها من الضياع والفساد وحذر من حبسه ووقفها عن النمو مطالبًا بألا تعطى الأموال إلى الصبيان والسفهاء الذين لا يحسنون التصرف، لنقرأ قول الله تعالى

﴿ وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[4]

(١) الآية ٤٧ من سورة يوسف.
(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان.
(٤) الآية ٥ من سورة النساء.

كما نهى القرآن عن أكل أموال اليتامى واستغلالهم ظلماً وعدواناً، وتوعد على هذا العمل وحذر من الإقدام عليه، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1]

ورغب الرسول ـ ﷺ ـ في الاتجار في أموال اليتامى وتنميتها حفظاً لها من النقصان وصيانةً لها من الضياع، فقال: «تجروا في أموال اليتامى، لا تأكلها الزكاة»[2]

وقد حكى القرآن عن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ فقال تعالى:

﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴾[3]

حيث علمه الله سبحانه صنعة الدروع من الحديد لاستعمالها في الحروب فتقيهم بأسها.

ولقد دعا الإسلام إلى الاقتصاد والتوسط في الأمور كلها، وأشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[4]

(١) الآية ١٠ من سورة النساء.
(٢) رواه الطبراني ـ الشرح الكبير جـ١ ص ٣٢.
(٣) الآية ٨٠ من سورة الأنبياء.
(٤) الآية ٣٢ من سورة فاطر.

وقال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾[1]

كما أرشدت السنة النبوية إلى التوسط في الإنفاق في كل شؤون الحياة بحيث يكون سمة لسلوك الفرد من ذلك قوله - ﷺ - «ما عال من اقتصد»[2]

ولأن الاقتصاد ضرورة من ضرورات الحياة وطبيعة المجتمعات، فقد اهتم الإسلام بدوره وتمسك بوسائله، بل إنه حينما نزل القرآن في مكة كانت لقريش تجارة في أسواق العرب عكاظ ومجنة وذي المجاز، وكان المسلمون يباشرون نشاطهم التجاري في هذه الأسواق، ولما تحرجوا من ذلك نزل قوله تعالى

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾[3]

وهذا هو القرآن يحكي لنا في سورة «قريش» أسلوب التبادل التجاري بين اليمن والشام وكيف كانوا يتبادلون الصادرات والواردات، وهي رحلة قريش إلى اليمن شتاءً وإلى الشام صيفاً يبيعون فيها صادرات الحجاز، ويستوردون منهما ما ينتفع به أهل الحجاز ويكسبون ويربحون.

(١) الآية ٦٦ من سورة المائدة

(٢) رواه أحمد في مسنده، السراج المنير جـ٣ ص ٢٧٣.

(٣) الآية ١٩٨ من سورة البقرة.

ومع هذا، فإن الإسلام يغرس في نفوس المسلمين صفات الصدق و لأمانة و لنصيحة ومكارم لأخلاق التي تحكم معاملة المسلم وتمنعه من لدخول في مضايق الحيل او لتغالي في تقدير الأثمان والأجور أو بخسها. ومن هذ كانت الكلمة المشهورة «الدين المعاملة» رباط للتعامل بالإسلام.

وقواعد السياسة لاقتصادية في الإسلام ليست ثابتة، بل تتغير بما يعالج كل حالة ويصلح لكل مجتمع فنظام لعشور «أي لجمارك» قد قننه فقهاء المسلمين مقدراً بالعشر ومع ذلك، تجيز هذه القواعد المعاملة بالمثل، بل وتجيز لاعفاء منه، كما إذ كانت الدولة بحاجة إلى لوارد أو الإكثار منه، كالأطعمة والادوية، وغير هذا مما قد تدعو الضرورة للتجاوز عنه.

ولقد تحدث علماء المسلمين في قواعد الاقتصاد: فهذا ابن خلدون يرى ألا تتجر الدولة، لأن اتجار رجال الحكم يؤدي إلى التغالي في الأسعار، كما واجهوا بالحل أهم لمشكلات الاقتصادية بتوزيع المنتجات ومواجهة حاجات الافراد بتقديم الضرورات ثم الحاجيات ثم الكماليات على أن يأخذ الفرد من لمعروض بقدر حاجته عند قلة الموجود، ولا تكون القوة الشرائية سبيلاً إلى أن يستأثر الغني بما تتسع له قدراته ثم لا يجد غيره ما يفي حاجته، ولا بأس بالاستزادة إذا كان في المعروض سعة. فإذ لم يكن وجب أن يتساوى الناس في أن يأخذ كل بقدر ضرورته أو حاجته أو في التخلي عن بعض الحاجات إذا نقص الموجود منه أو قل الإنتاج

روى مسلم أن رسول الله - ﷺ - قال «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه....»[1]

(١) رواه البخاري ومسلم.

ومن اشترى ما زاد على حاجته وغيره محتاج، فقد أسلمه للجوع والعري أو للمرض والحرمان.

ولقد فهم ابن حزم من هذا الحديث[1] أنه يفرض على الأغنياء في كل بلد أن يقوموا بحاجة فقرائهم العاجزين عن العمل أو الذين لا يجدون عملاً، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولم يكن في بيت مال المسلمين فضل يكفيهم واستدل بما روي عن النبي - ﷺ - أنه قال «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس، أو كما قال»[2]. أما إذا ضعف التدين، وجعل الناس القدرة الشرعية هي الحكم في التوزيع، وجب على ولي الأمر أن يحقق العدل بين الناس بالأساليب التي يراها مواجهة لما عليه الناس من أنانية لا ترعى حقوق الآخرين.

ومن ثم، ورد في الأثر (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) والحرية الاقتصادية، وإن كانت هي الأصل في الإسلام. لكن إذا تعسف الناس في استعمال حقوقهم، وجب على ولي الأمر أن يتدخل لردهم إلى حكم الله، وأوامره ونواهيه.

هذا ومن المقرر في الإسلام تحريم ركود المال واختزانه، وأصل هذا قول الله تعالى في سورة التوبة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٣٤ ﴾[3]

(١) المحلى لابن حزم جـ٢ ص ١٥٧ مسألة ٧٢٥.
(٢) رواه البخاري ومسلم، زاد المسلم جـ٣ ص ٢٤٤.
(٣) الآية ٣٤ من سورة التوبة

وغير هذا من نصوص القران والسنة التي تدعو إلى مداومة استثمار المال وتنشيطه سعياً إلى التقليل من أثقال العوز والحاجة بين المسلمين، وحتى لا تتجمد الثروات في يد طائفة محدودة تتحكم بها في المجتمع، كما أرشد القران في قوله تعالى

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[1]

كما قرر الإسلام أن كل ما به قوام الجماعة الإسلامية، فتوفيره من فروض الكفاية، بحيث إذا تركه الجميع أثموا. ومن أجل هذا، كان على المسلمين أن يعملوا ويدعموا اقتصادهم بالمزيد من الصناعة والزراعة والعلوم المستحدثة لتنظيم اقتصاد إسلامي متكامل متكافل تنمو به موارد الأمة الإسلامية.

وبعد:

فإن على علماء الاقتصاد والمالية المسلمين أن يؤصلوا اقتصاداً إسلامياً ييسر للناس معاملاتهم، ويفتح لهم طرق الاستثمار المشروع لأموالهم. فإن الحلال بين والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعرفهن كثير من الناس.

---

(١) الآية ٧ من سورة الحشر.

هدانا الله تعالى إلى قول الحق في دين الإسلام، وجنبنا الخطأ والآثام، وعصمنا من القول بغير علم ونقول كما علمنا في كتابه

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [1]

(١) الآية ١١٤ من سورة طه.

هموم المسلم المعاصر
وملامح هذه الهموم من منظور إسلامي

أينما نظر المسلم بصراً وبصيرةً في أرجاء لعالم الإسلامي على اتساع رقعة أوطانه، وتباين سكانه المسلمين في للون واللغة والعدات والأعراف، يستبين له أنه بلرغم من هذ التغاير نجدهم حريصين على أسس الإسلام الخمسة - في الجملة - يسرعون إلى أدائه، كما يسرعون بها، وافتقدوا في عبادتهم هده الأنة والاطمئنان، فبعد عنهم الإخلاص له في العبادة، وتكاثرت في سمائهم سحب الهموم والحيرة، سواء في واقعهم الاجتماعي، أو الواقع الاقتصادي، ومن قبل ذلك ومعه ومن بعده الواقع السياسي.

ذلك أن الواقع لسياسي للعالم لإسلامي منذ أن تحررت البلاد من الاستعمار العسكري الأجنبي وطنوا وهماً أو هماً - أنهم قد صاروا شيئاً مذكوراً - وخصة الشعوب العربية - التي ظنت أنها تشكل ثقلاً دولياً. بلغ البعض المتفائل منهم وأوحي إليهم من شيطين الإنس أنهم القوة السادسة الدولية بعد العمالقة في هذا العصر الولايات المتحدة، وروسيا، والصين، واليابان، وأوروبا.

ولم يفطن هؤلاء المتفائلون إلى أن لاستعمار العسكري لم يرحل إلا بعد أن زرع في أرض المسلمين من صاروا أشد على الشعوب الإسلامية ظلماً وفتكاً، حيث كانت سياسة البديل الاستعماري - وهم من جلدة المسلمين - إشاعة التقاليد والثقافة الوافدة مع المستعمر، وبث التغريب، بكل مخازيه، قصداً إلى الانحراف بالمسلمين عن عقيدة الإسلام وشريعته، والابتعاد بهم عن مُثل الإسلام وقيمه وتقاليده، ونجح هذا العمل الجديد في أن يزرع الخلافات حول الزعامة، ومن يكون

لزعيم، وروجوا بينهم صناعة ونجاره الشعارات والانقلابات حتى تتشاغل هذه الشعوب الجنعة، الساذجة المنبهرة، التي تبحث عن المثل لذي تحقق به وجودها، وتجعل أمرها بيدها، ثم لتستبدل بعقيدتها تلك الشعارات الفارغة من لمضمون، ونجحت هذه السياسة ووقعت الواقعة، وصار بأس المسلمين بينهم في ديارهم، وقلوبهم شتى. فانتقصت الأرض من تحت أرجلهم وانثلم العرض وانشق الصف ولم تعد الوحدة إلا في صف الصلاة وفيها نحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى

ومن هنا تعمقت الخلافات، ووجهت المساعدات فسقط البعض في فتنة المال، والبعض في فتنة السلاح، الذي أغرى حملته إلى استعماله ـ سلاح إرهاب ـ في إثارة الفتنة وإشاعة لخوف والاضطراب في صفوف الشعوب الإسلامية. وراحوا مع هذا يبثون بذور الفتن، والشك في الثقافة ليشغل الناس بما فتنوا به عن النشط المثمر، وتعمقت الخلافات الفرعية والمذهبية، وكانت الجماعات والجمعيات المتخالفة والمتخاذلة.

ولم يكن لواقع لاجتماعي للمسلمين بأوفر حظ من الواقع السياسي، بل سرت إليه هذه الأدواء، حتى انخلع الفرد المسلم من مثل الإسلام وقيمه، فانفرط عقد الأسرة، وانفلت الزمام من يد القيم عليها، ولم يعد ذلك لتواصل والتراحم والتعاون، الذي غرسه الإسلام، نصوصا آمرة في كتب الله وسنة رسول الله ﷺ. واستبدلت به أنانية بغيضة وأنظمة غربية غريبة، وسادت مظاهر التظالم بدلاً من التناصر، والتقطع والتدابر بدلاً من التعاون على البر والتقوى والإخلاص، وشاعت الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وكانت الثالثة الواقع الاقتصادي، حيث غلب النظام الاشتراكي في أغلب دول العالم الإسلامي مع أن للمسلمين في الغناء والكفاء بالقواعد الاقتصادية،

و لصو ط، والمعايير لتي تحيي الأمل، وتفتح المجال إلى العمل المثمر، و لكسب الحلال في الزراعة والصناعة، والتجارة.

هموم ثقال تراكمت آثارها، وتراحمت على مجتمعات المسلمين حتى أشعت الوهن في الأجساد و لعزائم وليس لانكشاف هذه الهموم، وإزاحة تلك الغيوم التي أظلت سماء المسلمين وأظلمت إلا أن يعود المسلمون إلى التماس الهدى و لهداية من مصدري لإسلام كتاب الله وسنة الرسول محمد ﷺ فالنظام الأمثل في الاقتصاد هو ما شرعه الإسلام وسطاً بين النظامين المتنافسين في لعالم المعاصر لرأسمالية، والاشتراكية.

ولو أن المسلمين ستثمروا مواردهم لزراعية و لصناعية، واليد العاملة لمتوفرة مع توفر رؤوس الأموال لدى الشعوب المسلمة لتي تفجرت بها أرضها، وانفجرت عن مخبوء رزق الله لو أن ذلك كان لكانت الأمة الإسلامية أحسن حالاً وأيسر مالاً، ولكنها بعدت عن سنة الله وشرعه، فكان هذا الضيق والغلاء والبلاء والبطالة ولو أن المسلمين صدقوا الله فاستقاموا على الطريق، وأخذوا بالأسباب لرزقهم الله كما يرزق الطير تغدو باحثة عن رزقها، وتروح وقد امتلأت من شبعها، ولو أنهم أقاموا أسس الإسلام، والتزموا بأخلاقه، لانزاحت عنهم تلك الهموم

مهما ستعيد شخصية المسلم والمسلمة الملتزمين بالإسلام عقيدةً وشريعةً، لمتعاونين على البر والتقوى الساعين إلى طلب الرزق الحلال، المتباعدين عن الحرام بكل صوره

حقوق الإنسان والمنظور الإسلامي

يتردد في تعبيرات رجال الفقه القانوني أن حقوق الإنسان والحريات العامة لا تدخل ضمن الحقوق بالمعنى المصطلح عليه لدى رجال القانون، إذ تفتقد العناصر الجوهرية للحق، وتختلف في طبيعتها عنه

ذلك أن الحق بمعناه في الفقه القانوني كل حق يقابله واجب، وهذا المعنى غير متوفر في حقوق الإنسان، ولا في الحريات العامة.

فقد درج علماء القانون الوضعي في تعريفاتهم التي وضعوها للحق على تحديد عناصر لا تتحقق في طائفة من حقوق الإنسان. فقد عرف بعضهم الحق (بأنه تلك الرابطة القانونية التي بمقتضاها يخول القانون شخصاً ما التسلط على شيء أو اقتضاء أداء معين من شخص آخر) وفي تعريف آخر (إن الحق قدرة، أو سلطة إرادية يخولها القانون شخصاً معيناً ويرسم حدودها)، وفي رأي ثالث بأن الحق (مصلحة يحميها القانون)

وناقش فقهاء القانون هذه التعريف، وتحدثوا في أمر (الحقوق الشخصية) – حقوق واردة على مقومات الشخصية – وعناصرها في علاقات الأفراد بعضهم ببعض، وأن الهدف منها حماية الشخص من اعتداء الأشخاص الآخرين، وأن بعض الحقوق الشخصية مثل حرية الاعتقاد، وحرية الاجتماع، وحرية التعاقد، تفتقد مقومات الحقوق بالمعنى الدقيق لأنها تثبت للناس كافة، دون اختصاص بعضهم بها على سبيل الاستئثار. ومن هنا يكون تسميتها حقوقاً من باب التجاوز في التعبير.

وحقوق الإنسان اصطلاح يتقارب مع اصطلاح الحقوق الشخصية، حيث يشتركان في معنى حماية الشخصية الإنسانية في مفهوماتها وعناصرها الأساسية، بمعنى أن اصطلاح حقوق الإنسان يقصد به أساساً الإشارة إلى ما ينبغي الاعتراف به للأفراد من حقوق تقتضيها طبيعة الإنسان ككائن أدنى، وتفرضها فرضاً لازماً ضمان لحرية الأفراد من تحكم الدول المستبدة

وبهذا يتضح جلاء أن إضفاء صفة الحقوق في اصطلاح حقوق الإنسان من باب التجاوز في هذا التوسع في التعبير منطق أو مدلول الدراسات القانونية

فأين منطق الدراسات الإسلامية في حقوق الإنسان؟ يمكن أن نستقرئ تلك الحقوق من أوامر الدين الإسلامي ونواهيه وتوجيهاته، إذ الملحوظ منها أنها تتضمن التزامات أو واجبات على طرف، تكون في ضمنها مصالح وحقوق لطرف اخر.

فالأمر بأداء الأمانات إلى أهلها أوجب حقا لأصحاب الامانات أن تؤدي إليهم أماناتهم، والنهي عن بخس الناس أشياءهم يتضمن تقرير الحق للآخرين أن تحفظ عليهم أشياؤهم، والنهي عن قتل الإنسان بغير نفس أو فساد في الأرض يتضمن بدلالاته حقا لكل نفس أن يحافظ عليها وألا يسفك دمها في غير قصاص، والأمر بالإحسان إلى كل من الوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار بالجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل، يؤكد أن لكل من هذه الأصناف حقوقاً يحض الدين على الوفاء بها، وينهى عن التفريط فيها

والتوجيه إلى أن الدين النصيحة تقرير إلى وجود حقوق لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، يلزم المسلم القيام بها، وتقرير مسؤولية كل راع عن رعيته تشير إلى أن العلاقة بين الحاكم والمحكومين تجعل على الحاكم واجباً أن يعدل،

وأن يسوس أمور المحكومين سياسة شرعية، وتوجب حقا للحاكم على المحكومين أن يطيعوه ما أطاع الله ورسوله، وحقًا على الرعية أن ترعى مصالحها. وفي مبدأ عدم الإكراه في الدين، تقرير حق كل فرد في عقيدته، وواجب الدولة والمجتمع في عدم التدخل في تلك الحرية إلا فيما يساء استعمالها، أو يخاف منها على سلامة المجتمع الإسلامي وأمنه وقوة بنيانه.

وأول من نبه من علماء المسلمين على قيام العلاقات بين الناس على أساس رابطة من الحقوق والواجبات الإمام الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»

وتشير كتابات الغزالي وغيره إلى أن معنى الحق هو: (المصلحة أو الرخصة أو الضمان الذي ينبغي أن يوفر لصاحبه، أو يحق له أن يطالب به وأن يدافع عنه).

ويظهر مما ضربنا من أمثلة أن فكرة تكريم الإنسان

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾[1]

وهي القاعدة التي أقيمت عليها حقوق الإنسان في هذا العصر - هذه الفكرة - أساسية في الشريعة الإسلامية ودراستها، وأن المصالح والمنافع والرخص والمنح التي تضمنتها نصوص الشريعة لصالح الفرد والمجتمع ووجهت إلى رعايتها وحمايتها، يسوغ أن نسمي بتعبيرات العصر - حقوقًا للإنسان - في لغة العرب.

وفي المصطلحات الشرعية استعمالات ودلالات يستقيم معها إطلاق اسم الحقوق على مختلف أنواع المصالح والمنافع، التي وجه إليها الدين في عقيدته

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

وشريعته لصالح الإنسان، سواء أكان فرداً أم جماعةً، لاسيما في مبادئ الحرية والمساواة والعدل والشورى والأمن والتعاون على البر والتقوى. يكفي عنواناً لحقوق الإنسان في الدراسات الإسلامية قول الله سبحانه وتعالى

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ ﴾[1]

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

تعالوا إلى كلمة سواء

الجدل حول تطبيق الشريعة

أثار موضوع تطبيق الشريعة الإسلامية حواراً ارتفع صوته، وعلا صراخه، حتى جاز أن نسميه جدلاً، خرج عن الجادة، وانحرف عن الهدف، فصار قضيته ساخنة مثيرة، تتصارع حولها الأقلام، وتجرى بها أنهر الصحف، وبرز في هذه الجولة حول الشريعة ـ ولا أقول عليها ـ من اخترعوا ألقاباً ومسميات دخلوا بها على الناس حتى يصيخوا السمع لما يقولون أو ليقرءوا ما يكتبون، فهذا كاتب إسلامي، وذلك مفكر إسلامي، مسوغات ورخص اخترعوها لأنفسهم، حتى يبيعوا ما يخترعون من فكر وأوهام باسم الإسلام، إحياءً للجدل حول العلمانية والإسلام، وهل الإسلام دين ودولة أو أنه دين فرض العبادة لله ولا شأن له بحياة عباد الله على هذه الأرض، وخلط وبُعْد عن استيعاب أصول الإسلام وفروعه ومقاصده، ودوامات من الفكر يتوه فيها الحكماء والعلماء، فما بالنا بهذا الجيل الذي انتبه بعد رقاد إلى العودة إلى الذات، ذات المسلمين وسمتهم وليس إلا الإسلام سمة لهم، الإسلام في عدله، الإسلام في حرصه على العلم والتعليم، الإسلام في حرصه على الترابط والتكامل الاجتماعي، الإسلام في تربيته للفرد وللجماعة وللأمة، الإسلام في حرصه على السلام الاجتماعي والألفة بين طوائف الشعوب والأمة، فلا تفرقة بسبب اللون أو الفقر أو الغنى، ولا اضطهاد بسبب الدين والإسلام الذي حرّم الغش في العقود وحمى من لا يحسن التعاقد، الإسلام الذي حث على عمارة الأرض وإشاعة الحياة والأمن والأمان، والإسلام الذي جاء بفروض محددة لا تقبل الاجتهاد في صلة الإنسان المسلم بالله، كما بيّن الحلال والحرام في التعامل في الحياة الاجتماعية بين بني الإنسان

﴿ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾[1]

لأنه قال بكثير مما أحل، وقال

﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما ﴾[2]

الإسلام السماحة والتسامح، الإسلام نضافة المظهر والمخبر

هذا الجدال لجاجة وغلظة

هل الإسلام - وهو كما جاء في القرآن الكريم وفي سنة رسول الله - ﷺ - نختلف كل هذا الاختلاف حوله ونتجادل، لا بقصد الفهم، وإنما في لجاجة وغلظة، ونمصر الإسلام وشريعته ونلا من السخط، وكثيرا من النقد، دون أن نستوعب هذه الشريعة، بل حتى دون أن نفقه ما قرأنا.

(١) الآية ١١٩ من سورة الأنعام.
(٢) الآية ٢٤ من سورة النساء.

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[1]

صرف القضية إلى تحريف متعمد للقيم الإسلامية

هذا الحل الصارخ الذي يعزل عن الطريق الحق عندما نحا بالقضية قضية تطبيق الشريعة الإسلامية إلى سبيل من الصد عن سبيل الله، وعن الاستقامة إلى تحريف متعمد للمفاهيم والقيم الإسلامية، حتى لقد بلغ بعض الكتاب أو المتحاورين التجاوز حتى قال إن حدود الإسلام وأحكامه شُرعت لتعقيد الإسلام، وقد تجاوزته الحياة الحاضرة بمعضلاتها وحضارتها

ولقد شنجر الكثيرون فيما إن كان تطبيق الشريعة فوراً وبالمسيرات والمظاهرات أو أنه ينبغي أن يتم في تريث وعلى مهل ودون عنف وما كان الإسلام المظاهرات والمسيرات، وما كان تطبيق شريعة الإسلام بالشعارات التي تُلصق على المركبات، ولا ما كانت أحكام الإسلام موقوتةً بعصر النبوة والخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - وإنما هو الإسلام عقيدة وشريعة، ودين ودنيا لكل العصور، ما بقي المسلمون قائمين له، حافظين لحرمات الله، يتلون كتابه ويعملون به.

حين بدأ مجلس الشعب في دور سابق بحث «تنقية» القوانين القائمة لرفع ما يكون منها مخالفًا للشريعة، وحين صرف أعضاؤه والمتعاونون معهم من العلماء - علماء الشريعة والقانون - الوقت والجهد، وأُنفقت الأموال في هذا الصدد، لم يكن

(١) الآية ٧٨ من سورة آل عمران.

ذلك مُظاهرةً أو مسيرةً وإنما كان عملاً جاداً، يسعى إلى نسخ طيب، ارتضاه المخلصون لهذا الشعب الحريصون على استقلاله وذاته وعلى مستقبله كرائد وقائد لهذه الأمة العربية والإسلامية، فإذا تأخر الإجراء الدستوري أو تباطأ، فإن ذلك على أي حال مسؤولية مجلس الشعب حين نعود إليه عاجلاً أو آجلاً، ولا تكون المسألة بهذه الطرق المعيبة التي قد تودي بسمعة البلاد واستقرارها وأمنها، ولا يكون الرد على المطالبة بالعودة لتطبيق الشريعة بهذه المقالات وذلك بالجهر بالأشنع بالصراح، ونعت الشريعة بعدم الصلاحية للتطبيق، وفقه فقهائها بأنه صار رثًّا باليًا، لا حياة فيه ولا يصلح لهذا الزمان ولحكم هذه الحضارة

إن هؤلاء الذين علت أصواتهم وارتفع صرير أقلامهم قد أساؤوا إلى ما يطلبونه حين يمسون مشاعر في أقدس ما يهمهم، وأهاجوا كوامن نفوسهم، حين يطلق هؤلاء القول على عواهنه لا يرعون في الله إلاً ولا ذمة، ولا للوطن وللمواطنين حرمةً ولا كرامة

جراحات السنان لها التئام ولا يلتأم ما جرح اللسان

نعم تعالوا إلى كلمة سواء اجعلوا حديثكم إلى هذا الشعب، ومن ورائه الأمة العربية والإسلامية في حتمية التطبيق للشريعة الإسلامية فوراً، أو أن الأمر يحتاج إلى تريث، وضحوا في أقوالكم المبرر لما تقولون دون أن تطعنوا الشريعة ذاتها، أو تسيئوا إلى السلف الصالح، الذين بذلوا في سبيل التأصيل والتفريع جهداً يذكر ويشكر ويحتذى، وقد تكون تلك الطعون التي سالت بها أنهر الصحف والمجلات، منذ ثارت هذه القضية، عن سوء قصد، كما قد تكون عن قصور في الفهم والتحصيل، وكلا الأمرين معيب، وقد قيل قديماً الناس أعداء لما جهلوا

قولوا للناس لا نريد الربا، ولكن نريد فقط أن نقرر إلغاء التعامل بالربا تحديده في المعاملات التجارية، وإيجاد البديل له، حتى لا تضطرب أمورنا الاقتصادية المتشابكة مع غيرنا، وأن نكون جادين في القول الرشيد.

قولوا للناس: إن من تطبيقات الشريعة استقامة السلوك، وأن المسؤول عن هذا كل فرد في الأمة قبل الدولة «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الرجل في بيته راع، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية، ومسؤولة عن رعيتها».

وفي القول المأثور «ألزموا أولادكم وأحسنوا أدبهم».

فهل قام كل رب أسرة وكل ربة أسرة بذلك؟ أم تريدون سلطة الدولة لتسيير أمور الأسرة في المنزل بين أفرادها التي جعل الله المودة والرحمة هي الصلة التي تربط بينهم.

قولوا للناس قاوموا الانحراف والسرقات، وأدوا الأعمال بأمانة وهمة، حتى تتوقف الرشوة والفساد.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1]

نعم على الدولة واجب الحكم والردع لمن يجدي معه النصح والإرشاد، ولا صلاح لهذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - والأمة جميعًا حكامًا ومحكومين مطالبون بذلك كل في حدود مسؤوليته.

(١) الآية ٤١ من سورة الروم.

نعم

تعالوا إلى كلمة سواء، يا وسائل الإعلام واخص الصحف والمجلات هل راعيتم حق الله والوطن والمواطنين، حين تنشرون هذه الحملة الضالة على الشريعة وتطبيقها، وتتخذون سوء التطبيق، أو انحرافه في بعض البلاد مثلاً على عدم صلاحيتها فذهبتم تحرفون الكلم عن مواضعه، بعلم أو بغير علم، وغاب عنكم أن هذا الشعب المتدين المسلمين والمسيحيين لا يرضى منكم ولا لكم هذا، بل إنه يسوؤه أن تهوي المعاول لهدم قيمه وشريعته، بل ووحدته التي علت في كل الأزمات والملمات

يجب إيقاف الحملات على الشريعة

لقد عاش هذا الشعب حينا من الدهر أكثر من عشرة قرون في ظل الاسلام وشريعته عيشةً راضية، مستقرة، مستنيرة، كلٌ يعرف حقه، وما عليه من واجبات.

فأعيدوا إلى هذا الشعب هدوءه النفسي، وأوقفوا هذه الحملات على الشريعة الإسلامية وتطبيقها، ووجهوا النصح في أناة وروية وموضوعية، لمن ترونهم قد انتهجوا طريقاً غير مشروع للمطالبة بالتطبيق الإسلامي، دون أن تملؤوا الصحف بهذه الأنهر من التجني على الإسلام وشريعته، وتوقيته أو توقف صلاحيتها، فإن التاريخ سيحكم عليكم، والأثر العاجل لما تقولون إنكم تضللون هذا الجيل الذي لم يدرس ولم يتعلم من الإسلام إلا القليل.

نعم

تعالوا إلى كلمة سواء، فقد هلع المثقفون على مستويات عالية من هذه الحملة ضد تطبيق الشريعة، وحضرت إلى شيخ الأزهر وفود من أساتذة الجامعات، ورجال التعليم ووردت تعليقات، وتعقيبات حزينة مما يكتب، وتتناقله عنا وسائل الإعلام في بلاد العرب والمسلمين، التي نحن منها بمنزلة القلب، واتخذتها بلاد أخرى وقودا لما تهدف من فتن.

أقترح على نقابة الصحفيين أن تبحث التصدي لهذه الظاهرة، ظاهر التعدي على شرع الله، والجرأة على الله ممن يقولون في الإسلام بغير علم، أو عن هوى مضل، فقد نشرت كلمات أقل ما توصف به أنها غير مسؤولة.

إن حرية الكلمة مكفولة بشرط ألا تمس القيم الأساسية للإسلام وللمجتمع الإسلامي، وهل من حرية الكلمة أن نسخر من بناتنا وسيداتنا الملتزمات، وأن نغريهن بالخروج عما التزمنه بدعوى أن لفظ الحجاب لم يرد في القرآن؟

أو أنهن ربما لجأن إلى هذا الالتزام لفقرهن أو عجزهن عن مسايرة التطور الحضاري؟ وكأن الحضارة ليست إلا في عري النساء وتبذلهن.

أقترح على نقابة الصحفيين أن تنشر الصحف بحوثًا تعالج وتواجه الانحراف عن الإسلام، وتنصر المسلمين رجالاً ونساءً، بحقائق الإسلام، وأباطيل خصومه، تقويما للسلوك، وتثبيتًا للشريعة لمن غابت عنهم أحكامها وتصرف همهم لها.

إن الصحف والمجلات أصبحت مصدرًا مهمًا للتثقيف والمعرفة، فافتحوا صحفكم لما يصلح، وزيدوا رقعة الثقافة الإسلامية مرات ومرات في الأسبوع، لا في يوم الجمعة فقط.

صدق الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[1]

﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾[2]

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾[3]

(١) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٤ من سورة الحج.
(٣) الآية ٣٣ من سورة فصلت.

الأقليات الإسلامية

وكيف نمكن دعمها؟ وحل مشكلاتها من جانب العالم الإسلامي لتؤدي دورها في خدمة الإسلام وخدمة المجتمعات التي تعيش فيها:

معنى أقليات وواقعها:

ماذا تعني عبارة الأقليات؟

قد تنوعت أقوال الباحثين في تحديد المقصود بالأقليات، ولكنه جميعًا لا تعدوا القول: بأن الأقليات نعني مجموعات من الناس ـ كثرت أو قلت ـ نعيش وسط محموعة، أو مجموعات أخرى تفوقها عدداً، وتتغاير معها، فكراً، أو سناً أو عصراً، وهي مع قتها أو بسببها نعيش وسط الكثرة الأخرى في ظروف من الاضطهاد والامتهان في أغلب الأحيان، وتتفاوت هذه الحالة من لبعض من مجتمع لآخر.

وو قع الأقليات المسلمة في العالم ـ أو أكثرها ـ تعيش في هذه الظروف المؤسفة المهينة، تبعًا لما يعانيه العالم الإسلامي من الضعف والفرقة، مع لتناحر والاقتتال، وتد عي لأمم الأخرى عى المسلمين، وكيدها الدائم و لدائب ومكرها ورغبةً في المزيد من تفريق صف المسلمين وتمزقهم.

وه هي صرخات هذه الأقليات لمسلمة المسحوقة تتعالى من هنا وهناك، تنادي الكثرة الكثرة من الأمة الإسلامية، لعل وعسى أن تسمع صداها آذان لم تشغل بهذه الترهات، التي ألهت المسلمين عما وقع بهم من بأساء وضراء، حتى صاروا أضحوكة بين العالمين

حتى أولت لنفر من المسلمين، لذين استجابوا لصرخات الاقليات المسلمة، فهبوا للعمل في ميدان المساعدة والإعاثة، وشكلوا هيئات ومؤسسات ولجان، وبذلت كل جهة جهداً في هذا الميدان، كانت نتيجة جهودها محدودة لمعوقات كثيرة، ومن أهمها فقد التنسيق فيما بينها، وانعكس حاضر العالم الإسلامي من الفرقة والشتات، وافتقاد القيادة الموحدة - انعكس هذا على تلك الجهات التي تعمل في ميدان الإعاثة، كما تفتقد مع هذا التنظيم الدقيق، فلم تتخلص من الارتجال والتعددية والاننية، وافتقدت التخطيط القائم على المعرفة التامة والشاملة بأوضاع الأقليات المسلمة وظروف الأحوال المحيطة بكل منها والتغيرات المتوقعة

ومن هنا كان - حتماً - ان ندرس أحوال وواقع تلك الأقليات دراسة تكشف أوضاع كل منها للتعرف على مشكلاتها والتحديات التي تواجهها، وطرق التغلب عليها، وفق أولويات فعالة، وتحديد الزمن المناسب لهذه الأولويات.

مرة أخرى، أقول دراسة الواقع المعاصر والمتغيرات الطارئة عليه، حتى تواكب المشاريع التي توجه إلى هذه الأقليات التي تختلف حتما ظروفها.

وهذه الدراسة متى تمت ينبغي أن توضع بين أيدي العاملين في الميدان من الشخصيات، والجمعيات والهيئات؛ لتنسق فيما بينها وسائل العمل، وصولاً إلى تضافر الجهود، وتوزيع المهام وتصويب التجاوزات والأخطاء، طلبا لتحقيق الغاية والأهداف ومن الخطأ أن ينظر إلى تلك الأقليات أو يتم التعامل معها من خلال الأفواه الجائعة، والبطون الخاوية فحسب! وإنما على هذه الهيئات أن توجد في تلك الأقليات علاجاً، وتجاوز ما أبرزته الدراسة من قصور، وتقاعس واسترخاء عن مواجهة ما انتابها من ضعف وتمزق، وقصور عن تنمية نفسها في التعليم والاقتصاد، ووحدة الصف والهدف، والتعاون على البر والتقوى، وتنمية الوازع

الديني بين الأفراد والجماعات في تلك الأقليات، حتى يكون حافزاً إلى العمل المثمر المنتج.

ومن هنا، وجب أن تسعى هذه المؤسسة إلى تأسيس نظام ملائم للدعوة الإسلامية من بين الأقليات وعلى أرضيها بعيدا عن الفلسفات المشككة، وعن الخلافات المعضلة، و لعمل كذلك على إنشاء المعاهد والمدارس و لعمل على تحسين تعليم العلوم الشرعية والعربية، مع العلوم المستحدثة والصناعات المعينة على كسب العيش، وإنشاء المدارس وترميم القديم منها وكذلك المساجد، وتكوين كوادر المعلمين والدعاة، وإنشاء دور الطباعة وهيئات الترجمة ومناهج موحدة، أو متقاربة للتعليم في المراحل كافة، وقرارات للجامعات العربية و الإسلامية بين كل أهلية من الأقليات أو تجمع منها، مع بث روح التعاون مع السلطات المحلية، ونشر الثقافة الإسلامية بالوسائل المستحدثة سواء النفقة العامة أو المدرسية بالمسجلات، والمصورات، وتبادل الزيارات مع المثقفين من أجل هذه الأقليات، والمطبوعات، والدوريات كالمجلات، والصحف، وامتداد النشاط التجاري و الاقتصادي، وإنشاء المراكز الثقافية العربية الإسلامية، وتبادل الاستثمار بإنشاء المؤسسات التي تتولى الاستثمار الإسلامي لدى تلك الأقليات، والأوضاع المناسبة بكل منها مع التواصل السياحي، و الإعلامي و الاقتصادي والسياسي، كل ذلك بالقنوات المشروعة المعروفة دولياً وبهذا تندمج هذه الأقليات وتنتمي إلى مجتمع الكثرة الإسلامية التي تطلق عليها دار الإسلام

العبادة والعمل

قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿ فإذا قُضِيَتِ الصلوةُ فانتشِرُوا في الأرضِ وابتغُوا من فضلِ اللهِ واذكُرُوا الله كثيرًا لعلكُمْ تُفلحُونَ ﴾[1]

بهذا القول الفصل من الله ـ سبحانه ـ كان اقتران العبادة والعمل، فليس لأحد من المسلمين أن يجافي بينهما، أو أن يحيف على واحد منهما، فلكل مجاله ووقته، وما طلب الله من أحد الانقطاع للعبادة، والتخلي عن العمل الذي يكسب منه قوته، ويزدهر به حياته، بل حياة الناس جميعًا، من بيع وشراء، وأخذ وعطاء، وحرث وصناعة وبناء، فالإسلام دين سعي وكسب، يجمع بين مصالح الدنيا والآخرة، يمتدح المؤمن القوي، والغني التقي ويزكي المؤمن المحترف، ويكره الخالي من العمل، ويقول ـ ﷺ ـ «لأن تذر ورثتك أغنياء خير وأحب إلى الله من أن تتركهم فقراء»[2]، ولقد استأذن بعض الصحابة رسول الله ـ ﷺ ـ في أن يبيعوا عقارهم وأموالهم، ويشتروا بها سلاحًا وخيلاً يجاهدون عليها في سبيل الله، فنهاهم عن ذلك، وقال «أمسكوا عليكم أموالكم ولا تفسدوها»[3]، واستأذنه أحدهم في أن يتصدق بكل ماله فنهاه عن ذلك، واستأذن آخر في اعتزال الدنيا، والتفرغ للعبادة فنهاه، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص «ألم أخبر بأنك تقوم الليل وتصوم

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

(٢) رواه الجماعة، نيل الأوطار جـ٦ صـ ٣٧.

(٣) رواه أحمد في مسنده عن جابر، ومسلم وابن حبان، جامع الأحاديث للسيوطي.

«النهار؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل فإن لنفسك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا، فأعط كل ذي حقٍ حقه»[1]

فإذا جاءت بعض النصوص الشرعية داعية إلى التفرغ لعبادة الله، فإن هدفها العبادة التي فرضها الله بالإخلاص في أدائها، والمحافظة عليها، فمتى دخل وقت الصلاة المفروضة كان حتمًا أن يبادر إلى أدائها بشروطها، وأركانها وسننها، وأن يترك - من أجلها - كل ما يشغله عنها.

وإذا حضرت فريضة الزكاة، وجبت المبادرة إلى إخراجها إلى مستحقيها، وبذلك ترخص الدنيا عند حضور واجب فرضه الله، فإنه ما استجلبت نعم الله، وما استدفعت نقمه، بمثل المحافظة على طاعته، والإخلاص في أداء فرائضه.

فالعمل الصالح هو همة التقي، ولا يضره مع ذلك أن تشتغل جوارحه بالعمل والكسب، لأن الدنيا متاع يتمتع به المؤمن إلى ما هو خيرٌ منها، يزرع فيها ليحصد الثمرة رضوانًا من الله، ورحمة وهديًا، يعمل في دنياه عملاً لا يضر بآخرته، ويعمل لآخرته بما لا يضر بدنياه.

ومن ثم كان على المؤمن أن يجد في العمل للدنيا وللآخرة، بل إن العمل الذي ظاهره للدنيا، مع النية الطيبة، وهو عمل يثاب عليه من الله، فما زرع زارع زرعًا فأكل منه إنسانٌ أو حيوانٌ إلا كان له به صدقة، وإن سعي الرجل ليعف نفسه عن المسألة صدقة، وإن سعيه على رزق زوجه وأولاده في سبيل الله نوع من أنواع الجهاد، كما جاء في أحاديث رسول الله - ﷺ.

فاعمل أيها المسلم وأنت حذر الله، إنك إن فعلت تكن قد جمعت الحسنيين، ولا تلتفت إلى أولئك الذين يفسدون حياتهم بالإعراض عن ذكر الله وعبادته، كفرًا

---

(١) حديث متفق عليه في رياض الصالحين للنووي

سعمته وبكر نًا لفضله، أو نضيعون ىنبهم ىلانقعد عن العمل المباح، و نكسب الحلال، ويقعدون عن طلب الرزق، وقد علموا ان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة و ن سه الذي دعانا إلى طاعته بعبادته بما افترضه علينا من فرائض، وما حده لنا من حدود، هو الذي أمرنا بعمارة هذه الحياة، والسعي في الأرض، والعمل لكسب لرزق، وأوجب أن نوائم بين العبادة والعمل، وأن نجعل العمل ذاته عبادة بالإخلاص و لإحسان، فيؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق سه ربه.

فالتاجر عليه أن يكون أمينا صدوقً، لا يغش في كيل، أو سلعة، أو يغالي في لربح فيشق على لناس، و لصانع عليه أن يجود في صنعته، فإن سه يحب إذ عمل العامل عملاً أن يتقنه، وبذلك تؤدى كلٌ دوره، فتزدهر حياة لناس، وتثمر عيشة راضية مرضية، يسودها العدل والرحمة والمودة

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1]

(١) الاية ١٨ من سورة الزمر.

رعاية الإسلام للمصلحة

وتيسيره على الناس

روى أصحاب السنن عن النبي - ﷺ - أنه قال «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»[١].

إن الإسلام راعي مصلحة لناس في أحكامه، فلا تخلوا فريضة من فرائضه أو واجب من واجباته التي أمر بها له - سبحانه - في القرآن، أو على لسان رسول له محمد - ﷺ - إلا ووراء ذلك من لمصالح للناس مالا يدخل تحت لحصر.

وإيضاحاً لهذا نقول إن له فرض على لمسلمين والمسلمات الصلاة خمس مرات في اليوم و لليلة يطهر بها القلوب، ويكبح جماح النفوس، فلا تطغى ولا تتكبر، وكيف يراودها هذا الكبر والعجب، وهي ترى نفسها ساجدة خاشعة لربها، معرضة عن كل الدنيا من مال وولد وزينة، حين يقف المسلم أو لمسلمة بين يدي الله مصلياً، مسبحاً، مكبراً، ومن قبل الصلاة قد طهر جسده وثوبه، فأسبغ الوضوء، وأخذ الزينة عند كل مسجد.

ألا ترى فروض لصلاة الخمس قد عودت المسلمين النظام، و لنظافة، كما عودتهم على تنظيم الأوقات، فأي مصلحة تلك التي تتبع هذه لفريضة تنظم وتنظف وتقوم السلوك، وتدعو لتواضع والمساواة، فالكل راكع، ساجد لرب واحد، في صف واحد، يختلط فيه الغني والفقير، والأمي و لمتعلم، كل الناس من شتى البيئات والهيئات، لا مراسم في الوقوف بين يدي الله إلا ما فرض له، والفضل

---

(١) رواه مسلم و لبخاري.

السابق. وهذا الصوم تزكو به نفس الصائم وتطهر قلبه من العجب والكبرياء، تحس بالجوع، فتأخذه الرحمة فتجود يده على الفقراء واليتامى والمساكين

وهذه الزكاة وسيلة المودة، والتراحم بين الفقراء والأغنياء. وبها تطهر نفس المسلم من الشح والبخل، ويزكو المال مباركًا فيه.

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾[1]

أليست هذه مصالح للناس أفرادًا وجماعات ألست تشريعها في الإسلام تقوية للروابط الإنسانية، وإزالة أسباب الشحناء والبغضاء والحسد من المجتمع.

وهذا الحج فريضة ساوت بين الناس جميعًا كلهم قد تجرد من زينة الحياة، من فاخر الثياب، ولذيذ الطعام، وتساووا فيما لبسوه من لباس الإحرام، وتسابقوا في الطواف والسعي ووقفوا على عرفات، وفي المزدلفة ومنى.. مسلمين مستسلمين له تائبين، عابدين، قد تخلعوا من مظاهر الحياة الدنيا وأخبتوا إلى ربهم يسألون العفو والعافية، إنها مصلحة المصالح تخضع النفوس العاتية، وتذيب القلوب القاسية، فتخشع لذكر الله، وتتواضع لخلق الله، في مشهد من مشاهد المساواة والأمن والأمان في الإسلام مصون بما شرع الله من رحمة، وعدالة وطمأنينة وسلامة للمجتمع.

قال الماوردي - رحمه الله - في كتابه (الأحكام السلطانية) « الحدود زواجر، وضعها الله للردع عن ارتكاب ما حظر، وترك ما أمر، لما في الطبع من مغالبة الشهوات الملتهية عن وعيد الآخرة بعاجل اللذة، فجعل الله - تعالى - من زواجر

(١) الآية ٣٩ من سورة سبأ.

الحدود ما يردع به دا جهالة حذرا من ألم العقوبة، وخيفةً من نكال الفضيحة، ليكون ما حظر من محارمه ممنوعًا وما أُمر به من فروضه متبوعًا، فتكون المصلحة أعم، والتكليف أتم.»

هذه مصلحة المصالح أمان واطمئنان للمجتمع، فالعقوبة ليست في واقعها انتقام من الجاني، وإنما هي زجر وضعها الله لردع عن ارتكاب الفواحش، فالإسلام قرر مبدأ الشرعية، والمساواة، والشخصية للعقوبة، وراعت الشريعة في تنفيذ العقوبة حالة الجاني، وظروفه حين وقعت جريمته ...

فالعقوبات الشرعية إنما شرعت رحمةً من الله تعالى بعباده، فهي صادرة عن رحمة الخلق، والإحسان إليهم، ولذلك ينبغي من يتولى مجازاة الناس على ما يصدر منهم من تهم ان يقصد بذلك الرحمة بهم، والإحسان إليهم كما يقصد الوالد تأديب ولده، وكما يقصد الطبيب معالجة المريض.

فكل أمر أو نهي وراءه من الله حكمة بالغة قد تظهر، وقد تخفى على الناس، وقد يبدو ان في العقاب قسوة وشدة، ولكن حقيقة الأمر أن ما قرره الله - سبحانه - في شريعته - الإسلام - من حكم هي ذات المصلحة وعين الحكمة والعدالة والرحمة.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(١)

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٢)

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة الحج

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة

وبقول رسول الله - ﷺ - «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[1].

أي استعينوا على طاعة الله - عز وجل - بالأعمال الصالحة في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم، بحيث تستلذون العبادة، ولا تسأمونها، مثل ما يفعل المسافر حين يتخير الوقت المناسب المريح فيصل إلى مقصده دون تعب.

أحاديث كثيرة ميسرة ومبشرة، ومحذرة عن منفرة، تفصح عن منهاج الإسلام، وقصده في تشريعه إلى تحقيق مصلحة المجتمع الإنساني بوجه عام والمجتمع الإسلامي بوجه خاص، وذلك الدين القيم الذي ارتضاه الله لعباده.

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[2]

(١) رواه البخاري، عن أبي هريرة

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة.

الإسلام رسالة عالمية يخاطب الناس جميعاً على أساس العدالة والمساواة

العدل

العدل لغةً ضد الظلم ومرادفه القسط، والعدل من الألفاظ المشتركة ويقال عدل في الأمر عدلاً وعدالة استقام، وعدل في حكمه حكم بالعدل.

والعدل في حقيقته صوره وأبعاد كثيرة، تلمس في العقول، والعمل، والمال، والرعية والحكم، والعبادة، ومعاملة الزوجة، والأولاد، والخدم والناس بوجه عام، والمجتمع.

وذلك أن الشريعة الإسلامية مبناها وأساسها عدلٌ كلها، ورحمةٌ كلها، وحكمةٌ جميعها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من شريعة الإسلام التي هي عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وفي القرآن الكريم وسنة رسول الله - ﷺ - وسيرته وحياة أصحابه - رضوان الله عليهم - نماذج تقدم مُثلا عليا حملها العدل، وعملت به.

فالعدل من حيث جوهره ليس قاعدة من قواعد الإسلام فحسب، وإنما هو مثل أعلى من حقائق وقيم الإسلام الكبرى، التي حض على تحقيقها وإشاعتها بين الناس في ثمان وعشرين آية من القرآن الكريم.

منها قول الله في سورة المائدة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1]

وفي سورة الأنعام

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[2]

وفي سورة النساء

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾[3]

---

(١) الآية ٨ من سورة المائدة
(٢) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام
(٣) الآية ١٣٥ من سورة النساء.

وسنجد مثلاً كثيرة من نماذج العدل التي حث عليها القرآن.

فلعدل في عرف الإسلام فريضة واجبة، فرضها الله على جميع الناس دون استثناء.

كما عرف الإسلام العدالة وفرضها على المسلمين، كانت المساواة من عرسه، وقيمه، ومبادئه.

فالناس في شرع الإسلام متساوون جميعاً في الحقوق والواجبات، متساوون في تكوينهم، وأصل خلقهم، فلم يخلق الله شعباً أو جماعة من طين أشرف من الطين الذي خلق منه شعب آخر، أو جماعة أخرى.

ولقد أوضح هذا رسول الله ﷺ في قوله «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»(١)

ثم تلا قول الله ـ سبحانه ـ في سورة الحجرات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ۝ ﴾(٢)

وقد امتدت هذه المساواة إلى مواطن عديدة، أحاطها الإسلام بسياج من القوانين، والقواعد، حيث التزم فيها بمبدأ المساواة الكاملة بين الناس.

ففي مواطن الأصول والفخر بالنسب والحسب يقف الإسلام مشرعًا وواضعًا لأصول جديدة في المساواة المطلقة: فيقرر الرسول ـ ﷺ ـ «الناس لآدم

(١) مسند أحمد.

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات

وادم من تراب»، وهي قول لعمر ابن لخطاب ـ رضي له عنه ـ «من قصر به عمله لم يسرع به نسبه».

وفي موضع للون ساوى لرسول ـ ﷺ ـ بين الناس جميعاً دون نظر للألوان، و ستقر هذا بين المسلمين

وفي عصر المساواة القانونية المعاصرة نجد أن اللون مازال سبباً للتمايز بين لناس لدى شعوب بلغت من الرقي المادي والعلمي شأواً بعيداً، لكن روح الإسلام وقوانينه قد أذابت العنصرية والتعالي بسبب اللون والجنس بين لمسلمين، فاستقرت المساواة بجميع مستوياتها وصورها حقيقة واقعة يلمسها الناس جميعاً.

ذلك أن الإسلام هو صاحب الشريعة الوحيدة التي استطاعت أن تقر المساواة مبدأً نافذاً بين الناس جميعاً، وأحلت لانسجام بين القيمة وبين الواقع، وذلك يظهر في موطن القيادة، حيث يقف المسلمون صفاً أو صفوفاً متراصة متناسقة، متلاصقين بالمناكب، متجهين إلى قبلة واحدة وخلف إمام واحد، لا فرق بين غني وفقير، ولا أبيض وأسود.

فالمساواة التي شرعها الإسلام في تطبيقها وتحقيقها هي

المساواة بين جميع أفرادها، ورعاياها في الحقوق والواجبات مدنية، أو سياسية، وأمام القانون، وأمام لقضاء، فليس هناك شيء يميز بين الناس.

فالعدالة و لمساو ة تقررت في لإسلام للإنسان، غير مسبوق في ذلك من دين آخر ولا قانون.

المصالح المعتبرة في الإسلام

ما من فريضة افترضها الإسلام، أو حد استوجبه إلا مصلحة للفرد بل وللناس جميعًا، مستهدفًا بها المصالح الدينية والدنيوية.

فقد استهدفت نصوص القرآن والسنة تحقيق المصالح المعتبرة للناس والتي أرجعها العلماء إلى أنواع ثلاثة

أ- المصالح الضرورية: وهي المحافظة على الدين، وعلى النفس، وعلى العقل، وعلى النسل، وعلى المال، لأن على هذه العناصر جميعًا تتوقف حياة الناس في هذه الدنيا ويوم يلقون ربهم، بحيث إذا اختل بعضها اختل نظام الحياة.

ب- المصالح الحاجية: وهي تلك التي تدفع الحرج عن الناس كما في بعض الصور من المعاملات.

ج- المصالح التحسينية: وهي التي تستهدف الأخذ بمحاسن العادات، وكمال الأخلاق، وقد ألغى الإسلام مصالح كانت لدى أقوام آخرين كالرهبانية، إذ قال رسول الله - ﷺ - «لا رهبانية في الإسلام»[1]، ذلك لأنها لا تتفق مع قواعده في العبادات والمعاملات.

وقد ارتضى الإسلام للمسلمين أن يكون معيار الصلاح والفساد من قبل الله وحده، محدداً في القرآن أو في سنة رسول الله، ذلك لأن القوانين الأساسية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية لا تتغير، ولا تتبدل، بل صلاحيتها مستقرة، مستمرة في كل الأزمان والأماكن.

---

(١) الفتاوى جـ١٠ ص ٣٤٦

وقد أفصحت النصوص القطعية عن أحكام الله بوجه قاطع للشك رافع للالتباس فلا يقبل من أحد أن يستدرك على الله مصلحة يعارض بها نصاً شرعياً قطعياً، فإذا قال الله في القرآن في المواريث

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾(١)

لم يعد هناك مقال لأحد في هذا الموضع، فالشريعة الإسلامية تستهدف غاية مثالية، على عكس القوانين الموضوعة إذ غايتها نفعية محضة، تقدم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، بينما الإسلام نظم واجب الفرد نحو ربه في العبادات، وواجبه نحو نفسه بقواعد الأخلاق بالإضافة إلى تنظيم علاقة الفرد بالمجتمع الإنساني فالشريعة الإسلامية دين، وقانون، وأخلاق، وهذه الغاية المثالية هي التي أدت إلى عدم الفصل في الفقه الإسلامي بين القواعد القانونية والقواعد الدينية والأخلاقية، فقامت القواعد الفقهية الإسلامية على أساس أخلاقي لم يسبق إلى هذا أي نظام قانوني قديماً، أو حديثاً.

(١) الآية ١١ من سورة النساء.

وللإيضاح. نسوق في هذا ما أسماه رجال القانون بنظرية سوء استعمال الحق.

فقد جرى الفقه الإسلامي على تقييد استعمال الحق ليس فقط بانعدام نية إيذاء الغير، أو انتفاء الإهمال، أو المصلحة بالنسبة لصاحب الحق، بل قيد استعمال الحق فوق هذا بالغرض الاجتماعي والاقتصادي الذي تقرر الحق من أجله. ومن أهم تطبيقات قاعدة ـ سوء استعمال الحق ـ في الفقه الإسلامي حقوق الجوار، والرفق بالمدين عند التنفيذ على أمواله، والتدخل في تسعير المواد الضرورية للمجتمع حمايةً له من الاستغلال أو حبس السلع، وإيقاع الناس في الحرج، والمشقة بناءً على تخطئة المحتكر في حديث رسول الله ـ ﷺ ـ «لا يحتكر إلا خاطيء».

وقاعدة الضرورة.. فقد أصلها فقهاء المسلمين على أساس من آيات القرآن، والأحاديث الشريفة التي عبرت عن تقدير الضرورات. فآيات التحريم في القرآن استثنت بعدها

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

ووضع الفقهاء قواعدهم المعتبرة «لا ضرر ولا ضرار»، «المشقة تجلب التيسير»، «الضرورات تبيح المحظورات»، «الضرر يدفع بقدر الإمكان»، ليس ذلك في المعاملات فحسب، بل وفي العبادات؛ فلا تخلو فريضة من الفرائض إلا وفي الأمر بها، أو في النهي عن المحرم مصلحة من المصالح التي لا تخفى، وإلا وفيه

(١) الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

تقدير للضروره التي هي مصلحه من المصالح. ففي الطهره تخفيفات، وفي الصلاة تخفيف منها، وفي الصوم تخفيف للضروره، ثم كل عبادة من العبادات وراءها مصلحة للمسلم، فهذه الصلاه بين القران ما وراءها (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) حتى قيل إن الله قائل أمراً ينهي فالنفس تامر بالشر

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1]

والصلاة تنهى عن الشر

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[2]

وجاء أمر اخر في القران مؤكداً لهذا النهي عن الفحشاء والمنكر

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[3]

وهكذا إذا تتبعنا العبادات وجدنا فيها المصالح العاجلة في الدنيا وما عند الله خير وأبقى

اللهم اهدنا الصراط المستقيم.. صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين... امين.

---

(١) الاية ٥٣ من سورة يوسف

(٢) الاية ٤٥ من سورة العنكبوت

(٣) الايه ١٥٣ من سورة البقره.

منهج التدين في الإسلام

يرشدنا إلى هذا المنهج ومنطقه قول الله ـ سبحانه ـ

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[1]

وقول الرسول ـ ﷺ ـ « ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بُعْداً »[2].

ومن ثم كان من المحتم أن يصبح مفهوم الدين مقروناً بإيضاح السلوك المستقيم في الفكر والعمل والخلق، كمكونات له، مع استبعاد كل الوسائل الهابطة، وما لا يناسب الدين من كل منهج وافد، ومن سوء فهم حقيقة الدين، واستبعاد الانحرافات والخرافات المتراكمة، مما يؤثر على فكر الشباب وخواطرهم.

ويجب استمداد المعلومات الدينية من حقائقها الأصيلة التي تطبع الحياة بطابعها الإنساني المتكامل دون تناقض مع الحقائق العلمية، وتقدم الإنسانية؛ لأن الدين والعلم متكاملان، غير متناقضين، وآيات القرآن الكريم التي تزكي العلم والعمل كثيرة وفيرة.

ثم إن الشباب يجب أن يعرف معنى الإيمان ومعنى الإسلام، وأسس الإسلام، وكبائر الذنوب وصغائرها، وأن مرتكب الكبيرة ليس بكافر، وأن تكفير المسلم من الكبائر، وأن للجهل والخطأ والإكراه عفو بشروط لكل منها، وأن يعرف المنهج

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره عن عمران وابن عباس مرفوعاً.

القويم للدعوة إلى الله، ومراتب الدعوة، ومن يقوم بكل مرتبة منها، وضوابط تأويل آيات القرآن الكريم، والاجتهاد لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها الأساسية، وغير هذا من الأمور العامة، والهامة التي تدور على الألسنة، والتي يقع من يواجهها في حرج خطير إذا لم يكن قد تأهل لها بالعلوم، والمعارف المؤهلة لارتيادها.

وبذا يفهم الشباب حقيقة الدين وترابط العقيدة والأخلاق والسلوك مع العمل، وينشؤوا على سلوك قويم محبين للفضائل عزوفين عن الرذائل، ستقدم أمرهم، واعتزوا بدينهم وبوطنهم وباعدوا بين أنفسهم وبين الانحراف كل الانحراف

وفي شأن المسؤولية نحو الشباب، فإن الإسلام قد حمل كل فرد المسؤولية الناجمة عن عمله ومعتقده، وهذا واضح في آيات القرآن الكريم.

ومن ذلك قول الله ـ سبحانه ـ

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[1]

ومن ذلك قول الله تعالى

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[2]

(١) الآية ٣٩ من سورة النجم

(٢) من الآية ٧ من سورة الإسراء.

ولقد حذر الرسول ـ ﷺ ـ ابنته فاطمة، وعمته صفية بنت عبد المطلب بقوله الشريف «يا فاطمة بنت محمد اعملي، فلن أغني عنك من الله شيئًا، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لن أغني عنكم من الله شيئًا .»[1]

وهذه المسؤولية الفردية متنوعة، تشمل كل علاقات الفرد مع نفسه، ومع غيره، ومع ربه.

ومن هنا كانت مسؤولية الشباب عن نفسه على هدي ما تعلمه وما فعلته المسؤولية الجماعية عن الشباب، ومن مسؤولية الشباب نحو نفسه من يحذر أولئك المفسدين الذين ينشرون الأفعال السيئة، وينطقون بالأقوال الموجهة إلى الفساد والمحرضة عليه.

فهم يغرون الشباب باتباع وإشباع أهواء النفس ونزواتها ورغبتها نزولاً على مبدأ الحرية المطلقة التي تتسم بسمة الفوضى والوجودية.

كما يغرونهم بالتمرد على نصائح وتوجيه الآباء والمربين بدعوى أنهم رجعيون صدأت أفكارهم، فلم تعد تساير الأجيال الجديدة، ثم إغراء الشباب بالتقليد لكل وافد من العادات والأعراف، ولو كان قد هجره أهله..

ومع كل هذه الأهواء كان سوء فهم الدين..

معنى الدين:

كلمة الدين في لغة العرب من الألفاظ المشتركة بين عدة معان.. فيقال

دان الرجل إذا أطاع.. ودان إذا عصى . ودان إذا عزّ، ودان إذا ذلّ... فهو من الأضداد..

---

(١) ذكره أحمد في مسنده.

ويطلق لفظ الدين أيضاً على العادة والشأن. والدين في الاصطلاح الإسلامي وضع إلهي شرع لإسعاد الناس في حياتهم في الدنيا والآخرة

وهو المراد بالهدي الذي نبه الله إليه سيدنا آدم - عليه السلام - عندما أهبطه إلى الأرض في قوله - تعالى - في سورة طه

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾[1]

وهذا الهدي الإلهي الذي جعله الله - سبحانه - هدياً لآدم وذريته جاءت به الرسل متتابعين وحياً من الله - سبحانه - حتى انتهى إلى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد - ﷺ -، وإذا كان الدين وحياً من الله - سبحانه - كان فيه كل سعادة للناس في الدنيا والآخرة.

وكان هو وسيلة الإنقاذ.

---

(١) الآيتان ١٢٣ و١٢٤ من سورة طه.

دور المسجد في التوجيه الاجتماعي للمجتمع الإسلامي

يؤدي لمسجد دوراً هاماً في لمجال الاجتماعي بالنسبة لمجتمع الإسلامي، حيث كان - ولايزال - يعمل على المحافظة على تماسك الأسرة لإسلامية ثم الأمة الإسلامية، وذلك عن طريق ما يلقى فيه من محاضرات وخطب تتناول اهتمامات الشعوب الإسلامية في كل شأن من شؤون الحياة.

ولعل من ابرز المجالات التي ينبغي أن يقوم بها المسجد في العصر الحديث هو أن يكون محوراً لمجموعة من الخدمات الخيرية كأن يكون إلى جانبه مستوصف طبي لمعالجة المرضى، ونادٍ لشباب يمارسون فيه الرياضة البدنية الخفيفة، و لنشاطات الثقافية، والترفيهية البريئة، ومكتبة للقراءة والمطالعة، وداراً لعرض الأفلام العلمية والاجتماعية والتربوية لهادفة، إلى غير ذلك من النشاطات الأخرى. وبذلك يسترجع المسجد دوره لتوجيهي الهام في المجتمع حسب متطلبات العصر الحديث، ولذلك ينبغي إعادة النظر في هندسة بناء المساجد في وقتنا لحاضر، حتى تكون وافية بالأغراض الاجتماعية النافعة للجماعة الإسلامية، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية، وهي العبادة، والتوجيه الديني

ولقد انتشرت في عصرنا ظاهرة الدروس الخاصة للطلاب - في مختلف المراحل التعليمية - وأولى بالمسجد أن ينشط إلى مساعدة الطلاب تيسيراً لهم في مكان آمن يستظهرون فيه دروسهم، ويجدون فيه المرجع من الكتاب في المكتبة، و لأستاذ المتخصص في المواد المختلفة.

ولقد كان المسجد في صدر الإسلام هو المكان الذي يتخرج منه العلماء، والفقهاء والقادة الصالحون.

كما كان المسجد هو المركز الذي تدار فيه حياة المجتمع، وعلى نور رسالته تسير خطى حياة الناس.

كان بحق كما وصفه الله في قوله

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]

وقد أجمل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وظائف المسجد على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ بقوله "وكانت مواضع الأئمة ومجامع الأمة هي المساجد، فإن النبي ـ ﷺ ـ أسس مسجده المبارك على التقوى، ففيه الصلاة، والقراءة، والذكر، والتعليم، والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية، وتأمير الأمراء، وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون، لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم".

إن أداء الصلاة في جماعة، وظيفة من وظائف المساجد تُنَمّي في الإنسان المسلم صفات وخصائص، تقربه من الله ـ سبحانه ـ وتقيه ارتكاب المعاصي وتحيي الوازع الديني لديه، ويعينه هذا على أن يصلح ما بينه وبين الناس.

(١) الآيات ٣٦ ـ ٣٨ من سورة النور.

والصلاة في جماعة تحقق التآلف والتراحم والمساواة بين المسلمين، وقد وردت الأحاديث الصحيحة التي تحث على صلاة الجمع والجماعات في المساجد، حيث تَفْضُلُ صلاة الجماعة على صلاة الفرد في بيته أو سوقه بسبع وعشرين درجة.

ولقد أوضح الرسول - ﷺ - حكمة صلاة الجماعة، وما تنطوي عليه من تكوين روح الجماعة بين الناس وإشاعة المودة والتراحم فيما بينهم، في قوله الشريف الذي رواه الإمام أحمد عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أنه قال «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم، يأخذ الشاة القاصية، والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد».

وفي المساجد الجامعة تقام صلاة الجمع، بما فيها من خطبة يتعلم منها المسلمون ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، ويتداولون فيما يهمهم من الأمور ويتعاطفون، ويتآزرون، كي تتواصل المجتمعات الصغيرة.

وفي المساجد ذكر الله - تعالى - الذي يدخل فيه تلقي العلم، وتعليمه، والدعوة إلى البر، ومزاولته، من أجل رضا الله، والتماس رحمته ومغفرته.

لقد تلقى الصحابة - رضوان الله عليهم - في المسجد القرآن وعلومه، والسنة الشريفة، قولاً، وتقريراً، وأفعالاً، فكان المسجد بهذا ميزاناً لشخصية المسلم الكامل، والمجتمع الفاضل الذي وصفه الله في قوله - تعالى -

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران.

إنه - ﷺ - معلم يقرأ القرآن على المسلمين، ويشرح آياته، ويعمل على تطهير نفوسهم، ويعلمهم الحكمة وأموراً شتى لم يكونوا على علم بها.

والنبي - ﷺ - يعرف وظيفته، ويستشعر مهمته، ومسؤوليته التي حملها إياه ربه - سبحانه وتعالى - فيقول «إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني»[1].

ويدرك صحابته - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين - هذا حيث وصفه أحدهم بقوله "ما رأيت معلماً قبله، ولا بعده أحسن تعليماً."

من هنا كانت أهمية المسجد في التوجيه الاجتماعي للمجتمع الإسلامي، وصدق رسول الله - ﷺ - حيث قال «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه

(٢) رواه أحمد في المسند عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

١- الإسلام والسلام

قال الله ـ سبحانه ـ في سورة البقرة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾[١]

وفي سورة المائدة قول الله سبحانه

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٢]

السلم نعمة والحرب في كل أشكالها محنة وأوزار.

هذه لغة الإسلام في طبيعة دعوته، وفي الأسوة الحسنة التي بإزدهارها ارتفعت اعلامه وسادت شريعته وأحكامه.

ذلك أن السلم هو أساس البناء للمجتمع الإنساني، وهو مشرق شمس الألفة عليه وقوة الأواصر المتشابكة به، ولا تكون الحرب إلا للدفاع عن هذا الاساس من

(١) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة

(٢) الآيتان ١٥ و١٦ من سورة المائدة.

الإسلام ليظل المجتمع المسلم قائمًا وشامخًا متماسكً، ولتبقى الألفة حول الإيمان مشرقة والأواصر في طاعة الله قويةً.

ومن هنا، أفاد القرآن في تلك الآيات أن سبل السلام المرشدة إلى نعم الحياة قد جاءت من الله، (قد جاءكم من الله نور وكتب مبين).

ومن أظهر معاني سبل السلام في القرآن أنه لا يُكْره أحد على الإسلام، وآية ذلك أن الله أمر بموادعة من ألقوا السلام إلى المسلمين فقال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾[1]

وقال في شأن من كف عن قتال المسلمين وعن الكيد لهم

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ أَن يُقَٰتِلُوكُمۡ أَوۡ يُقَٰتِلُواْ قَوۡمَهُمۡۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمۡ عَلَيۡكُمۡ فَلَقَٰتَلُوكُمۡۚ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾[2]

(١) الآية ٩٤ من سورة النساء.

(٢) الآية ٩٠من سورة النساء.

١ - الإسلام والسلام

وإتمامًا وضمانًا لاستمرار وقيام دعوة الإسلام على السلام، كان من صلاح الأمر أن يكون السلام حافظًا لقوة المسلمين ودافعا أذى أعدائهم عنهم.

وقد حرص الإسلام في وصاياه على السلم والسلام طلبا لوحدة الأمة ووقاية من كل ما يفرق صفوفها ويضعف قوتها؛ فقال الله في القرآن

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]

وقال

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2]

وفي الحديث الشريف عن رسول - ﷺ - «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[3].

فالإسلام قام على الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ونادى بالسلام الذي اشتق اسمه منه، وجعل تحية أهل الإسلام السلام، وطالما نهى عن البغي والعدوان وتوعد المعتدين والبغاة بأشد أنواع العقاب.

(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

(٣) متفق عليه.

وفي هذ الحديث ما يشير إلى معنى دقيق سام حيث تلوح عبارته وتشير إلى ان في تسميه المسلم بهذا الاسم الذي منه اشتق اسم الإسلام إشارة إلى أن معنى سلم جعل الناس سالمين من أذاه، وليس معناه فقط جعل نفسه سلماً لله وفي هذا التعليل إغراء على المسالمة، وتحذير من مضاره الناس إذ في حالة المضارة بالأذى، يكون حمل لقب الإسلام كأنه يحمله زوراً وهو ليس له أهل.

وتحقيقاً للسلام، حث الناس على التدخل في الخصام والخلافات طلباً لتسويتها وتحقيقاً للسلم بين الناس

ففي الحديث الشريف «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. قالوا يا رسول الله هذا ننصره مظلوما كيف ننصره ظالماً؟ قال تمنعه عن الظلم».[1]

وهذه دعوة إلى العدول عن المواقف السلبية في حال الخلاف بين الناس حتى لا يتفاقم الخلاف ويشتد.

ولقد فرض القرآن التدخل إذا وقع القتال بين طائفتين من المؤمنين لإيقاف القتال، كما في سورة الحجرات

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾[2]

أليس هذا فرضاً على المسلمين أن يسعوا إلى السلام ويوقفوا القتال، بل يقاتلوا الباغين.

---

(١) رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه

(٢) الآية ٩ من سورة الحجرات

ومن هنا، كان من يقف متفرجًا في حال العدوان على أحد وهو قادر على المنع آثمًا

ولنذكر دائمًا قول الله سبحانه

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1]

(١) الآية ١٠ من سورة الحجرات.

٢- الإسلام والسلام

(السلام مع الله)

في حديث سابق، تحدثنا عن الإسلام والسلام وأنهما متلازمان معًا يجريان في ثلاث شُعب أولها السلام مع الله

وهذا ما بدأ به رسول الله - ﷺ - دعوته؛ حيث دعا إلى توحيد الله، فكان من أسس عقيدة الإسلام (شهادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله). هذه الشهادة إعلان من المسلم بدخوله الإسلام وإيمانه بكل ما جاء به من عبادات ومعاملات وأخلاق مجتنبًا ما نهى الله عنه.

والمسلم بهذا يكون قد أسلم وجهه لله وهو محسن وتعلّقَ بأوثق ما يتعلقُ به من الأسباب وهو جانبُ الله عز وجل، كما وصفه الله في سورة لقمان بقوله

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١)

ومن السلام مع الله الاعتمادُ والتوكلُ عليه بعد الأخذ بالأسباب، ذلك قول الله - سبحانه - في سورة آل عمران

((فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ)) (٢)

---

(١) من الآية ٢٢ من سورة لقمان.

(٢) من الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

ومن السلام مع الله عبادته بما فرض وأوجب، وذلك يتمثل في إقامة أسس الاسلام التي جاءت في حديث رسول الله - ﷺ - الذي رواه البخاري عن ابن عمر «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج».

وينبغي أن تكون كلمةُ التوحيد نطقً باللسن واستقراراً في الجنان بمعنى أن يكون القلبُ بها حاضراً واللسان ذاكراً، حتى تخشعَ لها الجوارحُ، وينقشع بها الشيطان، وتمتلىء النفس خضوعاً لربها وشكرا لخالقها على أنعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ثم إن كلمة التوحيد براءةٌ من الشرك بالله، تهيىء النفس للصفاء والنقاء، وتلقِّ أوامر الله بالتسليم والإذعان من غير جدل ولا مراء.

ومن السلام مع الله تقواه ومراقبته ونجواه، والإخلاص في العبادة، والعملُ الصالح المثمر خير للمسلم وللناس أجمعين.

والتقوى سبيل إلى العلم، ففي سورة البقرة قول الله سبحانه

((وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ))[1]

والتقوى وسيلة إلى اليسر، ففي سورة الطلاق قول الله تعالى

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾[2]

---

(١) من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة

(٢) من الآية ٢ من سورة الطلاق

وفى ذات السورة قول اله سبحانه

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾[١]

فالسلام مع اه يستتبع الإحسان واليسر، فلا عسر ولا تلبس في لعقيدة. بل سماحةُ وبساطة عنوانُها كلمة التوحيد المنزّهةُ لله عن كل النقص، والموجبه له كلَّ كمالٍ وجلال.

وأي عسر في عقيدة الإسلام أو تعقيد بعد قول الله تعالى في سوره انساء

وأي عنار للسلام والسمم فوق هدا الاعتبار لقرابي؟ للهم .... لا

إن اسلام مع اه إيمانٌ وإذعانٌ وعمل، وتلك هي مكونات الإسلام. فالعقيدة والشريعة بهما صلاح الفرد و لأمة وهذا مم يشير إليه قول له سبحانه في سورة الأنعام

(قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)[٢]

ومن السلام في الإسلام أن تعبد له كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

حضور كامل في العبادة، فإذا كنت في الصلاة فاذكر أنك تناجي له رب العالمين بما علمنا في كتابه في سورة الأنعام

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ

وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ ﴾[٣]

---

(١) من لاية ٤ من سورة لطلاق.

(٢) من لاية ٧١ من سورة لأنعام

(٣) الآيتان ١٦٢ و١٦٣ من سورة لأنعام.

فيخشع قلبك وتطمئن جوارحك، وتسبح باسم ربك العظيم وباسم ربك الأعلى، وتوقن بأن التسبيح لله في ركوعك وفي سجودك باطمئنان وإيمان تقرب إلى الله، وعبادة له سبحانه بما شرع وأحب، ألا تراه قد استجاب دعوة ذي النون كما جاء في سورة الأنبياء

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾[1]

إن السلام مع الله يتحقق بأن يكون الإسلام كله حاضراً وماثلاً ومتمثّلاً في المسلم بجملة مقوّماته ومكوّناته بالعقيدة والأخلاق، بالعبادات والأذكار، بالمعاملات والتشريعات. إذ الإسلام إنما ينهض بناؤه بكل قواعده وأركانه، ومنها تكون منطلقاته في التعامل مع الحياة والسلوك مع البشر. كما بدت تطبيقاته في أجمل صورة وأكمل مثال، في أخلاق رسول الله - ﷺ - وفي سلوك خلفائه وصحابته وسير الهداة المهديين:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ ﴾[2]

(١) الآيتان ٨٧ و٨٨ من سورة الأنبياء.
(٢) الآيتان ١٥ و١٦ من سورة المائدة

٣ - الإسلام والسلام مع النفس ومع الناس

تحدثنا عن الإسلام والسلام، وعن شعبة من شعبه الثلاث، وهي لسلام مع الله، ونستكمل هنا حديثنا عن شعبتيه الباقيتين

أولاهما: السلام مع النفس:

إن لسلام الإسلامي ثمرة عرس الشمائل والفضائل والتقوى و تتوكل على له ومحبته، مما أصل الشرع، وأثل للحياة من عقيده وأخلاق ليقوم المجتمع الإساني المتوازن، مجتمع الإحسان والعدل، الذي تصان فيه الحرمات والحريات، وتؤدى الحقوق والذمم، وينحصر السوء في أضيق المسالك، إذ النفس الإنسانية أمارة بلسوء، كما وصفت في سورة يوسف في قول الله سبحانه:

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾[1]

ومن ثم، جاء الإسلام بالآداب والأخلاق والتشريعات التي تغلّب في نفس الإنسان روح الخير وتهديها إلى تكوين المجتمع الفاضل الذي ابتغاه الله لناس.

ووصولاً إلى سلام الإنسان، كل إنسان في نفسه كانت توجيهات الإسلام إلى الخير تعبئة نفسية وعقلية وأخلاقية وتشريعية، حيث وظف الإسلام كل خصال الخير في النفس البشرية، واستنهضها إلى سبيل الله وهو (السلام) بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(١) الآية ٥٢ من سورة يوسف.

والسلام مع النفس، أن تتجه إلى صنائع المودة وفعل الخيرات لجميع الخلق، ففي سورة آل عمران قول الله سبحانه

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾ [1]

ومن ثَمّ كان صنع الخير لذات الخير مطلبًا إسلاميًا دون نظر إلى ما إذا كان قد صادف من هو أهله أو لم يكن كذلك.

هذا سبيل من سبل السلام مع النفس في الإسلام، حتى تقدم على الخير تؤديه دون مقابل، ولا ترقب جزاءً، كما وصف الله بعض عباده المؤمنين بقوله تعالى في سورة الإنسان

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝ ﴾ [2]

ومن السلام مع النفس إلزامها بالفضائل. فالصدق فضيلة يجب أن يلتزم بها الإنسان، لأن الصدق من علامات المتقين، ذلك قول الله - سبحانه - في سورة الزمر

﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ۝ ﴾ [3]

---

(1) الآية ١١٥ من سورة آل عمران.
(2) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الإنسان.
(3) الآية ٣٣ من سورة الزمر.

وفي سورة التوبة

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[١]

والأمانة والوفاء بالعهد وبالوعد وبالعقد كل أولئك فضائل تتجمل بها النفس الإنسانية وتتجلى فيها هذه الكرائم، حتى تفيض على الحياة البشرية أمنًا وسلامًا.

والتواضع من حميد السجايا التي ينبغي أن يتواصى بها الناس حتى تسود بينهم المودة والمحبة والحلم، بمعنى الصبر والصفح من السمات المحمودة، وقد أثنى الله على إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سورة هود فقال

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾[٢]

كما أثنى قوم شعيب ـ عليه السلام ـ عليه في ذات السورة كما في قول الله

﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾[٣]

ومن السلام مع النفس حملها على الرفق والإحسان في القول والعمل، في العبادة والمعاملة. يشير إلى هذا قول الله ـ سبحانه ـ في سورة البقرة

---

(١) الآية ١١٩ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٧٥ من سورة هود.

(٣) الآية ٨٧ من سورة هود.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1]

وفي سورة آل عمران في صفات المتقين

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾[2]

ومن السلام مع النفس أن تحملها على العفة وعلى العفاف وعلى القناعة وحسن السلوك والشكر لمن أحسن إليك والرحمة بالناس، بل وبالحيوان، فقد امتدح الله الذين تواصوا بالرحمة في سورة البلد فقال

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾[3]

وغير هذا من صفات الكمال، والجمال التي هي من أخلاق الإسلام

ومن السلام مع النفس أن تكفها عن مساوىء الأخلاق، كالبطر، والكبر، والإعراض عن النصح، ففي سورة لقمان قول الله تعالى

---

(١) الآية ٨٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران.
(٣) الآية ١٧ من سورة البلد

﴿ ولَا تُصعِّرْ خدَّك للنَّاسِ ولَا تَمشِ فِي ٱلأَرضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ ﴾[١]

وفي سورة المائدة قول الله

﴿ قُل لَّا يَستَوِي ٱلخَبيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلخَبيثِ ۚ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ يَٰأُولِي ٱلأَلبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ ﴾[٢]

وأن تكفها كذلك عن الإسراف، وعن البخل

ففي سورة الإسراء قول الله

﴿ ولَا تَجعَلْ يَدَكَ مَغلُولةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبسُطهَا كُلَّ ٱلبَسطِ فَتَقعُدَ مَلُومًا مَّحسُورًا ﴾[٣]

ومن السلام مع النفس أن تكفها عن البهتان والكذب على الناس، بأن ترتكب الجرائم والذنوب، وتلصقها بآخر بريء منها، ففي سورة النساء قول الله - سبحانه

﴿ ومَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٤]

وأن تكفها كذلك عن الطعن في أعراض الناس بالغيبة والنميمة، ففي سورة الهمزة قول الله

(١) الآية ١٨ من سورة لقمان

(٢) الآية ١٠٠ من سورة المائدة

(٣) الآية ٢٩ من سورة الإسراء

(٤) الآية ١١٢ من سورة النساء

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[1]

وأن تكف النفس كذلك عن السخرية من الآخرين، ذلك قول الله ـ سبحانه ـ في سورة الحجرات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2]

وأن تكفها عن الكذب وقول الزور، ففي سورة الحج قول الله

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾[3]

وفي سورة الزمر قول الله

﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾[4]

ومن السلام مع النفس كفها عن الخيانة ففي سورة النساء قول الله ـ سبحانه

(١) الآية ١ من سورة الهمزة
(٢) الآية ١١ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٣٠ من سورة الحج
(٤) الآية ٣٢ من سورة الزمر

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾[١]

وقوله تعالى

﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[٢]

إن السلام مع النفس يتحقق بمراقبة الله وخشيته طلبًا لصلاح النفس، والبعد بها عن مواطن الهلاك، ذلك ما يشير إليه قول الله ـ تعالى ـ في سورة الإسراء

﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾[٣]

ثانيتهما السلام مع الناس.. أو السلام الاجتماعي:

إن الإسلام أرسى للسلام دعائم، وضرب الأمثال التي تشد الناس للاستمساك به. فها هو القرآن يعود بالناس إلى أصلهم الإنساني الأول، مذكرًا بوحدة الأبوين، مستثيرًا فيهم صلة القربى التي تعم الإنسانية كلها.

ففي سورة النساء قول الله ـ سبحانه ـ

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة النساء.

(٢) الآية ١٠٧ من سورة النساء.

(٣) من الآية ٧ من سورة الإسراء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[1]

وفي سورة الحجرات

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[2]

هذه الآيات وغيرها تستنهض الناس أن يتعارفوا، وأن يكونوا إخوة في الإنسانية، وأن يعرفوا لهذه الإخوة كافة الحقوق، بغض النظر عن اختلاف الناس في اللون، والدين، والغنى والفقر، والمهنة، فهذه دعوة إلى السلم والسلام بين بني الإنسان جميعًا تكريمًا لهذه الإخوة الإنسانية.

ولقد أوصى الإسلام بالسلام مع الأهل والزوج والبنين والبنات وذوي القربى والعشيرة والجيران، والرفقة في الطريق، ففي سورة النساء قول الله ـ سبحانه ـ

﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾[3]

(١) الآية ١ من سورة النساء.
(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٣٦ من سورة النساء.

وفي شأن الزوجين يقول الله ـ سبحانه ـ في سورة النحل:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾[1]

وفي سورة الروم

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]

أليس في هذه الآيات السلام الذي يشمل المجتمع كله من الوالدين إلى القرابة، واليتامى والمساكين والجيران، حتى ولو اختلفوا في الدين والسلام في الأسرة بين الزوجين والأولاد والأحفاد، تستقيم به الحياة في المجتمع، فيتعاونون على البر والتقوى، ويتناصحون على ما فيه خيرهم، حتى يؤدوا ما خلقهم الله له، من عبادة وعمل في تعاون وتآلف

وإن السلام في نطاق الإسلام يواجه الشرور التي قد تسيطر على بعض النفوس، ومن هنا كان السلام سلاحاً موجها لهذه الشرور التي قد تحيق بالمجتمع أو بالأسرة.

فنرى الإسلام قد بث السلام في العبادات، والأذكار، وفي المثل الأخلاقية، وفي التشريع، ليكون بها جميعاً قوام السلام الدائم، السلام الذي ينعقد عليه القلب.

---

(١) الآية ٧٢ من سورة النحل.

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم

ففي الصلوات يقول المصلي في التشهد «السلام عليك أيها النبي» ثم يختم الصلوات بتحية السلام حيث يقول المصلي مع الالتفات يميناً ويساراً «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وفي الأذكار «اللهم أنت السلام ومنك السلام» ولقد أوصى الإسلام بأن يكون السلام شعار المجتمع، فأصبحت تحية المسلمين حين التلاقي «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وقد صار شعاراً كذلك حتى عند زيارة الموتى الذين سكنوا القبور «السلام عليكم دار قوم مؤمنين»، «السلام عليكم يا أهل القبور» وسمى الله الجنة (دار السلام) فقال في سورة الأنعام:

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1]

وفي سورة الأحزاب:

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾[2]

وفي وصايا القرآن في رد التحية في سورة النساء قول الله ـ سبحانه ـ:

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾[3]

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب
(٣) الآية ٨٦ من سورة النساء.

وفي سورة النور

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾(١)

وفي ذات السورة

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(٢)

وفي الدعوة إلى الإسلام كان السلام أيضًا، ففي سورة النحل

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾(٣)

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة قال رسول الله ـ ﷺ ـ «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

إن المسلم الحق هو الإنسان المسالم في عقيدته، وفي دعوته وخلقه وسلوكه، ولسانه وموقعه وسائر علاقاته، إنه الأمن متحركًا، إنه روضة سلام يفيء إليها الخائفون حتى وإن كانوا على غير دينه، دلت قول الله ـ سبحانه ـ في سورة التوبة

(١) الآية ٢٧ من سورة النور.

(٢) من الآية ٦١ من سورة النور.

(٣) من الآية ١٢٥ من سورة النحل.

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

ومن عناصر السلام الاجتماعي لدى المسلمين أن الإسلام لا يكره الناس على الدخول في عقيدته ذلك قول الله ـ تعالى ـ

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[2]

وإذا كان القرآن قد استبعد الإكراه، والقسر في نشر العقيدة الإسلامية، لم يكن للأمة الإسلامية ما يدعوها إلى الاعتداء على الغير، وحق للمسلمين أن يدافعوا عن هذه العقيدة إذا وقع الاعتداء عليها أو عليهم بسببها، وهذا حق مقرر لكل أمة تحفظ به ذاتها وكيانها، فالمسلمون بمقتضى نصوص الإسلام مطالبون بعدم الاعتداء، وبالمساهمة في إقامة السلام، واستقراره واستمراره، وصون العلاقات بعيدًا عن القلق والاضطراب.

نجد هذه المبادىء مقررة في قول الله ـ تعالى ـ

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[3]

(١) الآية ٦ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة.

(٣) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

وقوله ـ سبحانه وتعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١)

وقول الله ـ تعالى

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (٢)

وبهذا الأسلوب الحكيم، الذي هو تنزيل من رب العالمين، يكون المسلمون مأمورين من الله بالتواصل، وتنمية العلاقات الإنسانية، واستدامتها والارتقاء بها.

إن الإسلام هو السلام، ويكفي أن السلام من أسماء الله الحسنى

فكونوا أيها المسلمون سلامًا مع الله، ومع أنفسكم، ومع الناس أجمعين، تعودوا أمةً واحدة موحدة، يحوطكم الإسلام بالسلام

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣)

---

(١) الآية ٨ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٦١ من سورة الأنفال.
(٣) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

دعائم الوحدة بين المسلمين

أرأيت إلى أمة اصطفاها الله وجعلها شاهدة على غيرها من الأمم، ذلك قوله تعالى في سورة البقرة

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(1)

أرأيت إلى أمة قام دينها الإسلام على قواعد واحدة، لا تختلف في مشرق عنها في مغرب، ولا شمال عن جنوب، أركان ثابتة جامعة مجمعة تلك هي التي أشار إليها الحديث «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً» متفق عليه

مفتاح الوحدة، الإيمان بالله ورسوله، تتردد على شفاههم ومن شغاف قلوبهم كلمة التوحيد، ينخلع بها ولها وسواس الشيطان الخناس من الجنة والناس، فتصفوا الأفئدة وتنتهي النفوس عن الغي والإثم، ومتى انتهت إلى ذلك كانت الحكمة ملء القلوب وغذاء الروح، ها هي النفوس قد أذنت لربها بالصفاء له والإيمان به فقامت تطهر الجسد والثوب

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ ﴾(2)

---

(1) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة.

(2) الآيتان ٤ و ٥ من سورة المدثر.

ونسبغ الوضوء كما أمر الله مستبشرة بالوقوف بين يدي الله استجابة لندائه

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾(1)

ها هي خاشعة، راكعة، ساجدة لربها ذاكرة، ومن ذنوبها مستغفرة، ولآيات ربها في قرآنه تالية، حتى إذا فرغت من صلاتها كانت بصلاتها بالناس براً، وعطاءً، وسخاءً، مزكيةً، متصدقةً، رغبةً إلى الله عن المال والولد، مستذكرةً أنها فتنة في الحياة، مبخلة مجبنة، تعطي المال على حبه مسكيناً ويتيماً، وأسيراً

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾(2)

طاعةً لربها وشكراً على نعمائه، عارفة أن هذا المال وديعة، أو عارية، لن يأخذ منه الإنسان درهماً ولا ديناراً حين يحين أجله ويودع في رمسه.

---

(1) الآية ٢٠ من سورة المزمل.

(2) الآية ٩ من سورة الإنسان

ثم ها هي النفس، المسلمة المطمئنة، تتشبه بالملائكة، فتصوم شهرها أملاً في التقوى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١)

تذكر به حاجة الفقير، والمسكين ذي المتربة، فتسارع إليه غوثًا بما يحفظ حياته أو يعينه كذلك على طاعة ربه، لأن الإنسان أخ للإنسان ورب بني الإنسان واحد. هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى وفضل بعضهم على بعض في الرزق ودعاهم للتساند والتعاون، لتتواصل بهم الحياة إلى حينها الموقوت. ولو أغناهم جميعًا، لطغوا وبغوا وما استقامت بهم أو لهم دنياهم

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (٢)

ومن هنا كان التفاضل في الرزق، فمن أحسن وشكر، أدام الله عليه نعمته ومن طغى وبغى وقال إنما أوتيته على علم عندي، خسف الله به وبداره الأرض وأصبح الذين تمنوا مكانه أو مكانته بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون بنعم الله، فكان صفاء النفس ونقاء القلب وطهره المال. فقد أفلح من زكى نفسه بالصلاة وبالصوم وماله بالزكاة. ثم هذه الرحلة إلى مؤتمر الحج الأكبر فيه يجتمع المسلمون من كل صوب يتدفقون محرمين متجردين من زينة الدنيا قد نذروا أنفسهم لطاعة ربهم.

(١) الآية ١٨٣ من سورة البقرة

(٢) الآيتان ٦ و٧ من سورة العلق.

فاعتزلوا كل مرغوب وركبوا الصعب، راجين رحمة ربهم، خائفين عذابه، حاجين ومعتمرين، رجالاً ونساءً، شيباً وشباناً، حتى جمعهم الله يوم عرفة. كان ذلك المؤتمر قبل أن يعرف الإنسان المؤتمرات، مؤتمر أمة تدين لربها بالطاعة، وتلبي داعية شاكرة، متشاورة في أمور الدين والدنيا، عالمة أن صلاح هذه بتلك. ثم يتسابقون بين المشاعر ولكل مكان ذكره وعمله، حتى إذا أتموا نسكهم طافوا حول الكعبة التي شرفها الله وجعلها أول بيت وضع للناس يصلهم بربهم ويجمعهم خمس مرات مفروضة في اليوم والليلة.

هل ترى لأمة مثل هذه الدعائم؟ إنها صنع الله الذي أتقن كل شيء.

ألا (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فعودوا أيها المسلمون إلى دعائم الإسلام فأقيموها في أنفسكم وفي بيوتكم وفي مجتمعاتكم، عودوا إلى بنيانكم فأقيموه، فهو ذاتيتكم وخصائصكم التي بها تعرفون وعلى غيركم من الأمم ترتفعون. فما كان الإسلام أسماء تتسمون بها، وإنما ديناً تعتنقونه وشريعةً تتحاكمون إليها، فيستقر بينكم العدل، وتنجاب الظلمات، وتتواصل الشعوب، وتنضوي تحت لواء القرآن، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله الذي ينصر من يشاء.

حرص الإسلام على طهر الغاية

وشرف الوسيلة

العمل الصالح الذي تردد ذكره في القرآن الكريم قرينًا للإيمان، وتاليًا له إشادة بهما، ودعوة إلى اعتناقهما، وهو عمل للدين أو للدنيا، صلح به أمر القائم به وامتد أثره إلى مجتمعه، فلا يذهبن أحد إلى قصره على العبادات فحسب.

يرشدنا إلى هذا الحديث، الذي رواه الطبراني في معجمه عن القيس بن عجرة - رضي الله عنه - قال مر على رسول الله - ﷺ - رجل فرأى أصحاب رسول الله - ﷺ - من جلده ونشاطه، فقالوا يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله، فقال رسول الله - ﷺ - «إن كان خرج يسعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان».

ولا ينبغي أن يأنف المسلم عن أي عمل مشروع يرتزق منه، ذلك أدب الإسلام الذي أرشد إليه الرسول - ﷺ - في حديث أبي هريرة الذي رواه أحمد في مسنده «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي به يحمله على ظهره فيبيعه، فيأكل، خير له من أن يسأل الناس، ولأن يأخذ ترابًا فيجعله في فيه خير له من أن يجعل في فيه ما حرم الله عليه».

هذا هو العمل، والحث عليه في الإسلام، شرف أي شرف، وقوة للفرد وللأمة، العمل المشروع الذي يخدم الاقتصاد ويثري الأمة والدولة، وليس من الأعمال المشروعة احتراف لعب القمار ولا التجارة في الخمر والمخدرات وكافة المسكرات والمحرمات ولا صناعتها ولا تيسير الاتجار فيها.

ولنعلم أن من محاسن الإسلام - عقيدة وشريعة - أن الله - سبحانه - ما حرَّم قولاً أو فعلاً إلا عوض خيراً منه. فقد حرّم الربا وأحل البيع والشراء تجارة رابحة. وحرّم القمار، وأبدل به المسابقة النافعة في الدين والدنيا، بالخيل والإبل والسهام، وحرم الكذب وشهادة الزور، واستبدل بها الصدق الذي يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة. فالعمل وسيلة لجمع المال بنية إنفاقه، أو استثماره فيما أحل الله.

ولابد أن تكون هذه الوسيلة - المال وجمعه - مشروعة، ومن ثَمَّ فإن من استحل الربا باسم الفائدة أو العائد، كان كسبه هذا حراماً. ومن استحل الرقص باسم الفن، كان كسبه حراماً. ومن استحل الخمر باسم المشروبات الروحية أو بأي اسم مما أطلق عليها في عصرنا هذا، لم يخرجه هذا من أنه قد ارتكب منكراً من القول وزوراً، وزين كبيرة من الكبائر. فهذا حديث أبي مالك الأشعري

«ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يُضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»[(١)]

ولا يرضى الله ولا يرضى رسوله - ﷺ - أبداً أن يُتخذ الحرام وسيلة إلى غاية محمودة. لأن الإسلام يحرص على شرف الغاية وطهر الوسيلة معاً ولا يقر الإسلام أبداً ذلك المبدأ الذي ساد في هذا العصر (إن الغاية تبرر الوسيلة)، وهذا غير صحيح في الإسلام؛ فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. يدل على هذا ما جاء في السنة؛ فعن جابر أنه سمع رسول الله - ﷺ - في عام الفتح يقول وهو بمكة

«إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»[(٢)]

---

(١) رواه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه.

(٢) كما جاء في صحيح البخاري ومسلم وغيرهم.

فقيل يا رسول الله: أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟.

فقال «لا، هو حرام، ثم قال: قاتل الله اليهود حرمت عليهم الشحوم، فحموه فباعوه، وأكلوا ثمنه»

ومن هنا كانت وصايا الإسلام للمسلمين أن يقبلوا على العمل المشروع، يكسبون به أرزاقهم، ويستثمرون فيه أموالهم وخبراتهم؛ فطلب الحلال فريضة على كل مسلم، لأنه الوسيلة المثلى والمقبولة من الله ـ سبحانه ـ إلى الطاعات. فالحاج إن لم تكن نفقته من حلال لم يقبل الله حجته، والزكاة إذا لم تكن من مال حلال لم يقبلها الله ـ سبحانه ـ ولا بركة في المال الحرام مهما كثر.

وقد قيل: ليتها لم تزن ولم تتصدق، فهؤلاء الذين يصنعون الخمور ويتاجرون فيها وإخوانهم الذين يجلبون المخدرات ويروجونها ويتعاملون بها بيعاً وشراءً، وتعاطياً، كل أولئك كسبهم حرام لا يقبل الله لهم صوماً ولا زكاةً ولا حجاً، وكل عمل مردود عليهم؛ ذلك لأنهم يسعون في الأرض فساداً بعملهم هذا، حتى يسلبوا الناس أموالهم وصحتهم

إن على المسلمين أن يبتغوا الكسب الحلال لأنه الوسيلة إلى طاعة الله ورسوله وصدق إذ يقول

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1]

(١) الآية ٢٧ من سورة المائدة

الإسلام دين الإنسانية

بتساءل بعض الناس عن أسباب ظاهرة اعتناق كبار المفكرين في الغرب الإسلام دينًا، بالرغم من طغيان الحياة المديه وتطورها إلى الرفهية التي تغرق لناس في الملذات والشهو ت وتصرفهم عن التدين، فضلاً عن المقارنة بين الأديان ولكن أولئك الذين ارتفعت بهم علوم العصر وثقافته، ووفرت لهم من زينة الحياة ونعمها ما لم يتوفر للأجيال التي سبقت كان منهم من فكر وقدر أن الإنسان كما هو في حاجة إلى غذاء بدن لينمو جسمه ويستقيم عوده، في حاجة كذلك إلى ما ينمي روحه ويرقى بها إلى مدارج الأمن والأمان، وفي حاجة إلى أن يعيش في مجتمع ارتقى سلوكه واستنار فكره وارتفع فوق السوء ت والسيئات، فسادته الرحمة، لأنه صار مجتمعًا، إنسانيًا، ارتقت به إنسانيته عن طباع المجتمع الحيواني الذي تسوده لقوة والقسوة والغدر والخيانة.

درس أولئك الإسلام في مصادره دراسة المنقب عن كنز يبتغيه أو عن هدف يتغياه، فوجدوا القرآن يقول عن رسول الله - ﷺ - وعن أصحابه - رضي الله عنهم

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

---

(١) لآية ٢٩ من سورة لفتح.

فعرفوا من هذا أن من أهداف الإسلام التراحم والتآخي والتعاون في أداء حق الله في العبادة، والاعتراف بحق الناس في الحياة في أمن وسلام، ثم وجدوا الله يصف رسالة الإسلام بالرحمة فيقول في القرآن

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1]

فالإسلام رحمة للناس جميعًا، تصلح به المجتمعات، فيتعاون الرئيس والمرؤوس والجار مع جاره والبائع والمشتري والمعلم والطالب والزارع والصانع، وعندما تحل الرحمة بين الأمم يسودها السلام.

وجد أولئك أن الإسلام مكن الإنسان من الوجود، فأقام حياته على ضوابط القوة والاستقلالية والذاتية حتى يعمل وينتج ويعمر هذه الحياة بأمله وأعماله وأجياله. ومن هنا، وإلى هذه الغاية، ألغى الإسلام الوساطة بين الإنسان وربه.

فيقول الله في القرآن لرسوله ﷺ

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ﴾ [2]

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة.

فليس بين المسلم وربه وساطة ولا حجاب، وهذا هو المسلم في صلواته يقرأ سورة الفاتحة وفيها يتوجه مباشرةً إلى ربه كما علمه، فيقول في هذه السورة

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝ ﴾(١)

ها هو الإسلام قد رفع كل الحجب، وما على المسلم إلا أن يتوضأ ويدخل في الصلاة بين يدي ربه، وفيها يصفو قلبه وتهدأ نفسه ويبعد عنه القلق والتوتر العصبي لأنه يستسلم ويسلم نفسه إلى ربه ثم ها هو الإسلام يخاطب العقل الذي فضل الله به الإنسان على غيره من المخلوقات، وبه كان سيداً في هذه الحياة، فكان على هذا العقل أن يحترم إنسانية الإنسان، دون نظر إلى لون أو جنس أو غني أو فقير، وفي هذا قال الله في القرآن

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾(٢)

ونادى رسول الله ـ ﷺ ـ في المسلمين يوم حجة الوداع

«الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»، ذلك حكم الإسلام ونداؤه منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، بينما

(١) الآيات ٥-٧ من سورة الفاتحة

(٢) الآية ١ من سورة النساء

لايزال الناس في لأمم التي غمرتهم المادة وجرفتهم الرفاهية يفرقون بين بني الإنسان ويقسمون المجتمع الإنساني إلى فئات وطبقات يوقدون العداوة فيما بينهم، ويثيرون هؤلاء على أولئك فتشتعل لحروب وتسفك الدماء التي صنها له.

نعم.

من أجل العقيدة لصحيحة للإسلام ومن أجل تشريعه لذي حكم فأصلح وقام في ضه المجتمع الإسلامي الإنساني يطبه الأمن و لإخاء والسلام والتعاون والمساواة وأخلاق الإسلام التي تصوغ المسلم الفرد، كما تصوغ لأمة الإسلامية نموذجًا فريدً يقتدى به، من أجل الإسلام كله عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا كان دخول الناس في دين له أفواجًا من كل صوب وحدب ومن الغرب ومن الشرق ومن أرباب الفكر وجهابذة العلوم؛ فالإسلام دين الإنسانية وما على المسلمين إلا أن يتمسكوا بهذا الدين، فقد ارتفعت مآذن المساجد في أرض له على اتساع مداه. ذلك الفضل من الله القائل

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[1]

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة لأنعام.

العقيدة وأثرها في الإصلاح

العقيدة قوة تدفع صاحبها إلى غايته وتجعله غير هياب مقداماً لا يبالي بالعقبات حتى يصل إلى ما ابتغاه، فهي بوجه عام أساس كل صلاح.

والعقيدة الدينية أصل الإيمان بل هي ذات الإيمان، فمن تحدث بلسانه دون أن يوافق قوله ما في قلبه لم يكن مؤمناً، ومن ساير الناس مسايرة ظاهرية فيما يقولون كان منافقاً. وها هو القرآن يصف هؤلاء المنافقين الذين تنطق أفواههم بما ليس في قلوبهم فيقول الله في سورة المنافقون

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾[1]

وفي سورة البقرة قول الله

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾[2]

هذه العقيدة هي التي تحدث بها رسول الله - ﷺ - يوم أن اجتمع قومه وقالوا لعمه أبي طالب "إن أراد ابن أخيك مالاً جمعنا له ما يغنيه وإن أراد جاهاً أو

---

(١) الآيتان ١ و٢ من سورة المنافقون

(٢) الآية ٨ من سورة البقرة

مكناً ملكناه علينا" فكان جواب الرسول - ﷺ - قل كلمته الخالدة عن إيمان وعقيدة برسالته "والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته"(١)

وصاحب العقيدة الحقة لا يقبل بها بدلاً، فلا يبيعها بمال، وها هو القرآن يخبرنا عن موقف الرسول - ﷺ - حين ساومه قومه على أن يعبد آلهتهم شهراً ويعبدوا إلهه شهراً.

ذلك ما جاء في سورة الكافرون

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝ ﴾(٢)

ففي ذلك إصرار على العقيدة ورد قاطع حاسم ينفي المساومة وينأى عن الضعف والتخاذل.

هاهو الرسول - ﷺ - يمضي فترة الرسالة في مكة على مدى ثلاثة عشر عاماً يؤصل هذه العقيدة ويثبتها وينميها في قلوب المؤمنين، ويجادل عنها ويكشف نورها وحقيقتها أمام أولئك العقليين المنكرين مجادلاً بالتي هي أحسن، مخاطباً العقول والأفئدة موجهاً النظر إلى ملكوت السموات والأرض، مثيراً الفكر والعواطف إلى ما ينبغي أن تكون عليه الإنسان من عبودية لله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى، مبرزاً للناس ما غفلوا عنه من مواطن العبرة والعظة وعظمة الخلق الدالة على قدرة الخالق ووحدانيته

(١) رواه ابن اسحاق في سيرته.
(٢) سورة الكافرون.

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1]

لم يشتغل النبي ﷺ أيضًا بفروع الدين، ولم يفرض عليه شئ لإرساء الأساس الصالح في العقيدة الصحيحة، كل هذا يدلنا على أن تأسيس العقيدة في المحل الأول من كل دعوة إصلاح، فهي إذا أرسيت التحمت بالقلوب وصوعتها الجوارح فكان السير إلى الخير دون رياء أو تظاهر، ينطلق اللسان بالقول الطيب في غير تصنع أو نفاق أو هرب من الحق. إن العقيدة الراسخة تصنع الخير وتدفع إليه وتبعد عن الشر والهلكة. ومن هنا كان قول الرسول الكريم - ﷺ - "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن".[2]

أي أن العقيدة تستتبع الفضيلة ولا تتصور معها الجريمة ولا الفسوق ولا العصيان، وإن الجريمة حين ترتكب إنما ترتكب في وقت ارتفعت فيه العقيدة والفضيلة وحلت محلها الرذيلة والأفكار الضالة والنزوات الطائشة.

هذا هو الإسلام الذي ربط بين العقيدة والأخلاق الكريمة القويمة التي تلزم صاحبها في جميع الظروف ومع كل الناس بالتعامل الحسن الطيب، فلا يكون التعامل حسب المنفعة والمراتب والأقدار، بل إن العقيدة والخلق القويم هما الموجهان للإنسان إلى العدل والمساواة. وليست العقيدة فردية فحسب وإنما تكون كذلك فريضة جماعية بل واجتماعية تقوم على القدوة الرشيدة والأسوة الحسنة.

إن تدبير أمور الجماعة سواء كانت أسرة أو شعبًا أو أمة يقتضي دائمًا رسوخ العقيدة وقيامها على الحق والعدل. إن الحكم بلا عقيدة كالمسافر بلا زاد.

---

(١) الآية ٢١ من سورة الذاريات

(٢) رواه النسائي عن أبي هريرة

إن العقيدة الدينية هي الدافع الأول لما بعدها من العقائد في الاجتماع أو السياسة أو الاقتصاد، لأنها الوسيلة إلى الاستقرار النفسي. ومن حرم ثبات العقيدة الدينية واستقرارها عاش سقيم الفكر مزعزع النفس لا يعمل الخير ولا يدل عليه، بل ولا يحمل الناس على الخير لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

فالإيمان بالله ورسوله هو الذي يعلم الإيمان بحقوق الوطن والمواطنين.

وفي كتاب الله القدوة وفي رسوله - ﷺ - الأسوة، فلنصحح عقيدتنا ونثبتها ولنؤمن إيمان الواثق بربه وبوعده

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]

إنه الله سبحانه الذي قال في سورة يونس

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾[2]

وليؤمن قادة الأمة وزعماؤها بأن الإيمان الصحيح والعقيدة الصافية هي الوسيلة إلى الصلاح والفلاح وصدق الله في قوله في سورة الرعد

(١) الآية ٦٢ من سورة النمل.
(٢) الآية ٩٨ من سورة يونس

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾[1]

ولا تغيير لما في النفس إلا بصحة العقيدة ونفاذ البصيرة وعقد النية والعزيمة على الصلاح والإصلاح فنأخذ بزمام أنفسنا ولننهها عن غيها فإن ذلك عين الحكمة والصواب.

(١) الآية ١١ من سورة الرعد.

الأمومة في الإسلام

كرم سه الإنسان ورباه على ،لرأفة والرحمه و لمودة لخير الجماعة الإنسانية وعني الإسلام في تشريعه ببناء أسرة الإنسان، فقد شادها على أحكم نظام وبين لكل فرد فيها حقوقه وو جباته حتى لا تغمط الحقوق وتهمل الواجبات وقد حرص لاسلام في أحكامه على إبر.ز حق ،لوالدين والتذكير الدائب بحقوقهما على أولادهما بل إن سه سبحانه في وصيته جعل بر الو لدين والإحسان إليهما قرين لدعوة في عبادته وحده، محذراً من الإساءة إليهما بأدنى إساءة، فقال سبحانه

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝ ﴾ (١)

بل إن لاختلاف في الدين ليس مبرراً لعدم لإحسان إلى الو لدين في نظر الإسلام

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ (٢)

---

(١) الآيات ٢٣ ٢٥ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ١٥ من سورة لقمان.

وها هي أسماء بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما - تقول "قدمت عليّ أمي وهي مشركة فاستفتيت رسول الله - ﷺ - قلت قدمت عليّ أمي وهي راغبة (تعني تسأل الإحسان إليها) أفأصل أمي؟ قال "نعم صلي أمك"[1]

هذه عناية الإسلام بأساس الأسرة الانسانية - الوالدين -، وهذه الصحابية الجليلة ذات النطاقين تستفتي رسول الله - ﷺ - في البر والإحسان إلى أمها المشركة الراغبة في الإسلام. والراغبة فيما عند ابنتها هذه ترجو عطاءها وإحسانها، فأجابها - ﷺ -. "صلي أمك".

بهذا ارتفع الإسلام بالأم فوق اختلاف العقيدة تقديراً لأمومتها لأن الأم أصل. وهذا الصحابي الذي جاء إلى الرسول الكريم يسأله "يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال أمك. قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟ قال أمك، قال ثم من؟، قال أبوك"[2].

قال العلماء مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر لمشقة الحمل ثم الوضع ثم الإرضاع، فهذه الثلاثة تنفرد بها الأم وتشقى ثم تشارك الأب في التربية

وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قول الله تعالى:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾[3]

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) الآية ١٥ من سورة لقمان.

فقد سوى سه بين الوالدين في الوصايه بهما وحص الأم بأمور ثلاثة - بياناً لزيادة فضلها ودعوة ـى ختصاصه بفضل من لمحبة والشفقة. إذ قد وصى به الرسول ـ ﷺ ـ ثلاث مرات، فلها على هذا ثلاثة أرباع البر، وتقدم في ذلك على الاب عند المرحمة. وقد دهب جمهور لفقهاء إلى أن الأم تفضل في لبر على الأب، من حديث عائشة، قالت "سألت النبي ـ ﷺ ـ أي لناس أعظم حقًا على لمرأة؟، قال: زوجها، قلت. فعلى الرجل؟، قال. أمه"[1]

وفي الجب الآخر المقابل للبر و لإحسان، نرى الإسلام ينذر ويحذر من عقوق لوالدين فقد جاءت أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ منذرة عاق و لديه بالطرد من رحمة سه، وبأنه لا يدخل الجنة ولا يجد ريحها، بل إن من يؤذي و لديه ويخالفهم يعجل له العقاب بمثله في الدنيا فضلاً عن حسابه وجزائه في لآخرة. يؤكد هذا قول الصادق الأمين "كل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة إلا عقوق لوالدين، فإن الله يعجله لصاحبه قبل الممات"[2].

أي أن مخالفة الوالدين لمؤدية إلى سخطهما توقع بالعاق عاقبة في حياته عملاً من أولاده.

وقد قبح الرسول إيذاء الأم ومخالفتها وعدم الإحسان إليها فقال "إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ووأد البنات ومنعًا وهات وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال"[3].

---

(١) أخرجه أحمد والنسائي وصححه الحاكم.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ١٠ ص٣٣٠ من كتاب الأدب.

(٣) الترغيب والترهيب لمنذري جـ٣ ص٣٣١، ط لحلبي.

كما حفظ الإسلام كرامة الوالدين ووصى الأولاد بذلك، وفي هذا يقول الرسول - ﷺ - "إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه. قيل يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه"[1]

فقد حرّم الرسول بهذا الحديث كل فعل أو قول يؤدي إلى إهانة الوالدين، وهذا أصل من سد الذرائع، وإن كل فعل الى إلى محرم يكون محرماً، وبهذا يجب ألا يقول الولد شيئًا ما يسب به غيره فيضطر إلى سماع ضد ما يقول بنفس كيله وألفاظه.

قال الفقهاء[2] إن من الإحسان للوالدين طاعتهما في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات المندوبة ومن هذا أمر الجهاد الكفاية والإجابة على نداء الأم والاستجابة إليها ولو كان الولد في الصلاة إذا أمكن إعادتها في وقتها والشواهد على هذا كثيرة من أقوال الرسول - ﷺ -[3].

وها هو القرآن الكريم ينبئ الإنسان كيف أنبته الله في بطن أمه

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝ ﴾[4]

(١) المرجع السابق صـ ٣٢٤.
(٢) تفسير القرطبي جـ١٤ صـ ٦٤.
(٣) المرجع السابق جـ ١ صـ ٢٤٠.
(٤) الآيتان ١٣ و ١٤ من سورة المؤمنون

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[1]

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[2]

هذه الأم تحمل الإنسان جنيناً يتربى في بطنها وبين أحشائها، ويمر بأطوار الخلق التي أرادها الله - سبحانه - حملته في مشقة وبمحبة سعيدة بهذا الحمل تشقى به وهي راضية قريرة العين شديدة الحفاظ عليه، تبغي تمام الحمل وكماله لا تبالي بأوجاعه وآلامه. والإسلام في أحكامه التشريعية يقوي من عزيمتها ويشد من أزرها مدة حملها، فيخفف عنها في العبادات إذ يبيح لها الفطر في شهر رمضان عوناً لها على مشقات الحمل، وإمداداً لها بغذائه. وبعد الولادة أيضاً رخص لها الفطر في شهر رمضان متى خافت تضرراً على نفسها وولدها أو على نفسها فقط رعاية لأمومتها وما تتحمل من مشاق وآلام الحمل وجهد الإرضاع والسهر على الوليد والقيام على شؤونه ولقد خففت عنها الشريعة أيضاً في

(١) الآية ٦ من سورة الزمر.

(٢) الآية ١٥ من سورة الأحقاف.

الصلاة وشروطها فاعتبرتها من أصحاب الأعدار وأجرى عيها الفقهاء أحكام وصوء المعذور وصلاته اعتبارًا لمتاعب الحمل ومشقاته، وأنها قد تفوق غيرها من الأعذار ثم إن الله ـ سبحانه ـ كرم الأم الحامل إذا طلقت فأوجب على مطلقها الإنفاق عليها نفقة شاملة للسكنى فقال

﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ ﴾[1]

قال القرطبي "لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقات والسكنى للحامل المطلقة ثلاثًا أو أقل منهن حتى تضع حملها"[2].

وإذا كانت الأم مطلقة ووضعت حملها فعلى مطلقها والد طفلها أجرة إرضاعها إياه

﴿ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴾[3]

وذلك إجماع الفقهاء أما اختلافهم ففي استحقاق الأم المرضع أجرة الرضاع إذا كانت ما تزال زوجة لوالد الطفل. وأجاز الفقهاء جميعًا للأم المرضع طلب زيادة نفقتها أو أجرة الإرضاع للاستعانة على تعويض ما تستنفده الرضاعة من مادة

(١) من الآية ٦ من سورة الطلاق.
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٨، صـ ٢٣٣
(٣) من الآية ٦ من سورة الطلاق.

جسمها، الأمر الذي قد يؤدي في كثير من الأحيان إلى ضعف الأم، وهذا إذا لم تتعهد المرضعة نفسها بغذاء نافع تستعين به على هذا الجهد.

ثم الإرضاع في مدته المقررة شرعًا كما جاء في قوله تعالى:

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ ﴾[1]

هل هو حق للأم أو هو واجب عليها؟ لفظ هذه الآية يحتمل الوجهين، وعلى كليهما فقد أناط بها الشارع مباشرة هذه المهمة الأولية في بدء وليدها وتكوين جسده حتى يشب وينمو[2].

وقد قال الفقهاء: إن الرضاع لازم على الأم حال الزوجية لأنه عرف صار كالشرط، ويلزمها ذلك ديانة وقضاء إذا لم يقبل الولد غير ثديها أو لم يكن للأب ولا للصغير مال باعتبار ذلك حال ضرورة، سواء أكانت زوجة لأبيه أو مفارقة له.

وفي تأصيل وجوب الرضاع على الأم أو عدم لزومه يقول ابن رشد: "إن الفقهاء قد اختلفوا في حقوق الزوج على الزوجة بالرضاع فقال قوم: إن ذلك يجب على من اعتادت الإرضاع ولا يجب على الشريفة إلا إذا تعين عليها بأن كان الطفل لا يقبل ثدي غيرها وإن هذا هو مشهور قول مالك"[3].

---

(١) من الآية ٢٣٣ من سورة البقرة.

(٢) حاشية ابن عابدين على شرح الدر المختار جـ٢ صـ٩٢١، ومواهب الجليل جـ٤ صـ ٢١٣، ٢١٤.

(٣) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد جـ٢ صـ٤٩، ط مصطفى الحلبي.

وقال فريق اخر إن إرضاع المرأة ولدها واجب عليها على الإطلاق، ولم يوجب ذلك عليها فريق اخر على الإطلاق، وقال إن سبب اختلافهم هو اختلاف المذهب في تفسير قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن)، فمن قال إنها تتضمن حكم الرضاع بمعنى أنه واجب، أوجب الإرضاع على الوالدة على أساس أن هذه الآية من الأخبار التي مفهومها الأمر في صورة الخبر. ومن قال إنها تعد حكمًا مجردًا فقط قال بعدم وجوب الإرضاع على الوالدة لأنه لا دليل على الوجوب، ومن قال بالتفرقة بين الوالدات بحسب مركزهن في المجتمع فقد اعتبر في هذا الرأي العرف والعادة.

بل إن فقه الشريعة، بل نصوصها الثابتة قطعًا، قد أكسبت المرضع حق الأمومة لمن أرضعته من غير والدها، وجعلت الرضيع محرمًا لها كابنها ولادة تمامًا، وأولادها أخوته رضاعًا، يدل لذلك قول الله ـ تعالى ـ في آية المحرمات

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾[1]

سواء أكانت ظئرًا مستأجرة للإرضاع أو كانت متبرعة به، فقد اكتسبت بهذا النص الكريم حق الأمومة وصفاتها، وها هو القرآن قد سماها أمًا إعزازًا وتكريمًا لما قامت به مع أنها لم تلد رضيعها.

وكذلك كان الفقه الإسلامي مع الأم بعرف حقها ولو فوتت واجب إرضاعها ولدها، فأوجب على الأب أن يستأجر مرضعة للطفل عند الأم احتفاءً بعاطفتها وتمكينًا لها.

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة النساء

ولقد كانت الشريعة حفيظة على الأمومة حفية بها حين أناطت بها حق حضانة أولادها سنينهم الأولى، وما دامت أهلاً للحضانة ولم تتزوج بغير أبيهم[1]. وها هي أم تتحاكم مع مطلقها إلى رسول الله - ﷺ - في شأن ولدهما، فتقول "يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء وحجري له حواء وثديي له سقاء وزعم أبوه أن ينتزعه مني، فقال - ﷺ - بيانًا لحكم شرعي مطرد "أنت أحق به ما لم تنكحي - أي تتزوجي بآخر"[2]. وأجمعت الأمة على هذا، ويدل لذلك ما شجر بين عمر بن الخطاب وامرأته جميلة بعد أن اختلفا في شأن ابنهما عاصم، إذ خاصمها عمر إلى أبي بكر ليأخذ عاصمًا منها بقضائه، فقال أبو بكر "ريحها ومسها ومسحها خير له من الشهد عندك يا عمر". وكان هذا بمحضر الصحابة، ولم ينكر أحد منهم على أبي بكر قضاءه فكان إجماعًا.

أرأيت إلى هذا الوصف للأمومة في قول الخليفة الأول، وكيف أبان - رضي الله عنه - أثر الأم على نفسية الطفل، وأن عطف الأم وحنوها قد يكون له غذاءً وشفاءً - أي لرضاء نفسه بكنف أمه وسعادته واستقراره في حجرها، مما يزيد في نموه ويشفيه من سقمه.

وعلى هذا القضاء جرى رأي فقهاء الشريعة الإسلامية، لا يعلم بينهم خلاف في أحقية الأم الحضانة، لأن الصغار عاجزون عن مصالحهم، فكان إلى غيرهم قضاؤها. وكانت الأمهات أحق وأولى بالحضانة لأنهن بالأطفال أشفق وعليهن أحنى وأصبر، وهذا عدل لتوزيع الأعباء والمسؤوليات بين الآباء والأمهات: فعلى كلٍّ

(١) المدونة جـ ٥ ص ٤٣، ٤٤ والمغني لابن قدامة الحنبلي جـ٩ صـ٢٩٨ و٢٩٩ وزاد المعاد لابن القيم جـ٤ صـ٢٣٨-٢٤١.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو.

من المسؤوليات ما يوائم طبيعته فكان على الآباء الإنفاق وعلى الأمهات الحضانة. وإذ قام بالأم مانع من الحضانة أو تخلت عنها، فإن حق الحضانة ينتقل منها إلى أمها ثم إلى ام الاب ثم لأخت لابوين ثم الأخت لأم وهكذا كانت ولاية الحضانة مستفادة من جانب الأم لكمال شفقتها على أولادها، وتنتقل بعدها لقراباتها لاكتسابهم هذه الشفقة بانتسابهم إليها، إذ هم فريقها، كما يعبر الفقهاء.

وهذه الأمومة في محضنها ولاية لمطالبة بحقوق طفلها من والده فلها بهذه الولاية اقتضاء نفقته والقيام على تدبير أمره من تعليم وعلاج وإصلاح طالما كان في يدها وفي سن حضانة النساء التي تنتهي وفقًا للجاري عليه قضاؤنا بسبع سنوات للصبي، وإحدى عشرة سنة للصبية، وهي نهاية أناطها بها صاحب الشريعة - ﷺ - في قضائه السلف، أو ما نسميه في لغتنا المعاصرة النيابة القضائية .

وأمومتها لا تختلف ولا تتخلف بتغاير دينها عن دين ولدها، بل لها حق إرضاعه وحضانته وإن كانت غير مسلمة وهو مسلم لأن الأمومة فطرة الله لا تحقد على من حملته كرهًا، بل هذه الفاسقة عن أمر الله المقارفة لما نهى عنه لا تسقط أمومتها وحضانتها لطفلها طالما لم تضيعه بفسقها أو يعتاد فعلها المحرم. وأنى لأم أن يضيع معها ولدها إلا إذا نعرت من لدن الأمومة وتقصى قلبها من غلائلها؛ فالفطرة أن ترتفع الأم بولدها إلى الكمال ولا تهوي به إلى ما تراه نقيصة ومذمة وتأمل له خيرًا لم تنله. ومن أجل هذا كانت وصية الله في قرآنه بالوالدين وبالأم دون وصيتها أو أحدهما بالولد، لأنه - سبحانه - فطرهما على محبته وفدائه

ولذا، جرى القضاء وفاقًا للفقه الحنفي على أن الحاضنة الذمية والمجوسية كالمسلمة لكل منهما حق حضانة ولدها المسلم ما لم يعقل الدين، إذ الحضانة مبناها الشفقة، وهذه لا تختلف باختلاف الدين وللأم أيضًا حق الادعاء بنسب

صفلها إلى أسيه، والمنافحة في دلك لأن في ثبوت سسه صحيحًا صونًا لسمعتها، فهو حق أصس لها بوصفها أمًا، فأمومة البكاح أشرف من أمومة لسفاح ولف مصلاً عن حقها، النيابة عن وليدها في إثبات حقه في الانتساب إلى أبيه كي لا يضيع، ويعير بها أو تعير به.

ولم يقف تقدير لشريعة للأمومة عند هذا الحد، بل إنه إذا أجرمت وحق عليها العقاب في حد شرعي أو تعزير، وكان في إنزاله بها إضرارًا بها أو بولدها، أو زيادة في تعذيبها أوقفت الشريعة الغراء هذا الجزاء، حتى تؤدي رسالة الأمومة لتضع حملها وترضع وليدها إشباعًا لهذه العاطفة السامية(١) فهذه لغامدية التي اقترفت الخطيئة، فمكنت عير ذي الحق من نفسها، واستقر في أحشائها الجنين ثمرة الخطيئة، وجاءت تبغي عقاب الدنيا، جاءت تقر في صراحة وإقدام ورباطة جأش أمام رسول الله ـ ﷺ ـ تقر وتقرر أنها ارتكبت شيئًا إذ كانت عاقبة إثمها حملها المستقر في بطنها، وتطلب إقامة لحد عليها في إصرار التائب لنادم العائد إلى ربه، فقال لها رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه "ارجعي حتى تضعي حملك". وبعد أن وضعت، جاءت تحمله مجددة إقرارها، مظهرة إصرارها على إماطة إثمها، ولقاء ربها طاهرة مطهرة، فأشار عليها الرسول بأن تعود حتى ترضعه ويستغني عنها ولما كان ذلك، عادت به، وفي يده تمرات يأكلها، جاءت مسة إلى ربها، تستعجل حدها، عندئذ دفع الرسول ـ ﷺ ـ الطفل إلى من يكفله، وأمر بإقامة الحد عليها رجمًا حتى أرهقت روحها، وصعدت إلى بارئها، نقية بريئة مغفورًا لها، كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ في شأنها "لقد تابت توبة لو وزعت على أهل السماوات والأرض لوسعتهم".

(١) نيل الأوطار للشوكاني جـ٧ صـ٩٢

وليست شفاعة الأمومة في الحدود في هذا النطاق فقط، بل تسري الشفاعة لو سرقت الحامل ما يوجب قطع يدها أو كانت ضمن قطاع الطريق وقضي عليها بالقطع أو القتل إعمالاً لحد الحرابة

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[1]

وإذا اقترفت الأم إثم شرب الخمر وهي حامل وقضي بجلدها، وجب تأخير إقامة الحد عليها حتى تضع حملها تقديراً لأمومتها، بل إن الأم النفساء إذا سكرت ووجب عليها الحد لم يقم عليها الحد حتى تبرأ من نفاسها[2]

ويظل قدر الأمومة ومقدارها مثالاً في العقوبات الإسلامية فإذا قذفت الأم الحامل أو النفساء إنساناً، ووجب عليها حد القذف، فإنه[3] يوقف حتى تضع حملها أو تبرأ من نفاسها، تقديراً لما لاقت من مشاق في الحمل والوضع وحمايةً لهذا القرار المكين الذي خلقه الله حصناً يتربى فيه الجنين نطفة، ثم علقة، ثم عظاماً كساه الله لحما، وكان إنساناً سوياً.

وهكذا، تستمر أحكام الشريعة الغراء في رعاية الأم إعزازاً لأمومتها متى استوجبت عقباً مؤثراً في ذاتها أو جنينها أو وليدها، فيقضي بتأخير التنفيذ إذا

(١) الآية ٣٣ من سورة المائدة.

(٢) المغني لابن قدامة الحنبلي جـ٩ صـ٣٤٩ في باب التعزير.

(٣) المرجع السابق جـ١٠ صـ١٤٠ و١٤١.

وجب قتلها قصاصًا وكانت حاملاً حتى تضع حملها، وتبرأ من نفاسها. سواء أكانت قصاصًا في النفس أم فيما دونها.

وبعد، فإن الله ـ سبحانه ـ منزل القرآن على نبي شريعة الإسلام ـ ﷺ ـ[1] الذي قال "إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم منهم، فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة، قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت بلى، قال فذاك لك، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ اقرءوا إن شئتم

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۝ ﴾[2]

فالرحمن الرحيم قد خلق الرحم وسماه، ووضعه في الأم، وجعله صلة ومودة وقربة فقال سبحانه

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3]

(١) أحكام القرآن للقرطبي، جـ١٦، صـ ٢٤٧ ورواه البخاري عن أبي هريرة.
(٢) الآيات ٢٢-٢٤ من سورة محمد
(٣) من الآية ٧٥ من سورة الأنفال.

وينهى ربنا عن قطيعة الرحم، وقرن فعل هذا العمل بالفساد في الأرض حسبما تقدم قوله (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم).

هذه الأمومة في الإسلام عطاء لا ينفد، ولا ينتهي، ويكفيها ما جاء في الآثار في الدعوة إلى البر بها وتكريمها «الجنة تحت أقدام الأمهات».

الأموال واستثمارها في الإسلام

الاقتصاد في الإسلام سياسة تشريعية من الله - سبحانه - في أصولها، وفي ذات الوقت إنسانية من حيث تطبيقها. ونتيجة لهذا، فإنها سياسة ثابتة باعتبار مصدرها ومتطورة في تطبيقها، ومن قبيل هذه المصادر قوله تعالى

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾[1]

وقوله تعالى

﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾[2]

من هذه الأصول وغيرها أخذ فقهاء الإسلام قواعد استثمار المال حذراً من الوقوع في الربا المحرم، مخالفين بذلك عناصر الفوائد الربوية، التي تتمثل في هذه النقاط تحديد الفائدة قدراً وزمناً، مع ربطها برأس المال دون الربح، وتحميل

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٧ من سورة الحشر.

صناعي إسلامي يقوم على إنشاء صناعات تتوفر خماتها في ابلاد الإسلامية، وبنوك كبنك التعمير والإسكان، وإحياء الأراضي البور ،القابلة للاستصلاح، وهي بحمد الله كثيرة مع توفر سبل إصلاحها ومواردها المائية في مصر والسودان وغيرهما. كل هذه طرائق لاستثمار مال المسلمين المودع في الخزائن أو المبعثر في البنول الربوية، يتقوى به أعداء الأمة الإسلامية. وبحمد الله أيضً تتوفر الخبرات في نواح كثيرة، ومن ثَّم فإن اتجاه ،لبنوك الإسلامية إلى تلك الوجوه في الاستثمر دون الاكتفاء بالعمل التجاري، يجذب إليه العديد من المتعاملين الذين يبتغون كسْب طيبًا، لاسيما في هذا الوقت الذي بدأت فيه لصحوة تغزو قلوب المسلمين، دفعًا لهم إلى التماسك والتآخي والتزام أوامر الله و جتناب المحرمات من الربا والفسق.

هذا، ومن المقرر في الإسلام تحريم ركود المال واختزانه، وأصل هذا قول الله تعالى

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾(١)

والآية التالية لها، وغير هذا من نصوص القرآن والسنة، تدعو إلى مداومة استثمار المال وتنشيطه، سعيًا إلى التقليل من أثقال العوز والحاجة بين المسلمين، وحتى لا تتجمد الثروات في يد طائفة محدودة تتحكم بها في المجتمع

(١) الآية ٣٤ من سورة التوبة.

﴿ مَّا أَفَاءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾(١)

وفقه الإسلام يقرر أن كل ما به قوام الجماعة الإسلامية فتوفيره من فروض الكفاية، بحيث إذا تركه الجميع أثموا ومن أجل هذا كان من مهام البنوك الإسلامية توجيه نشاطها إلى ما يدعم اقتصاد الأمة من صناعة وزراعة وعلوم مستحدثة، بذلك تستحوذ على إقبال أصحاب الأموال المسلمين؛ لأن المأمول من المصارف الإسلامية ألا يقتصر عملها على الإقراض وقبول الودائع، بل عليها أن تسلك الطرق العديدة المستحدثة في استثماراتها، سواء في مجال الإنتاج، أم الخدمات، كأعمال التخزين والوكالة.

ولا شك أن سلوك البنوك الإسلامية في التعامل بأسلوب التعاقد الرضائي مع أصحاب الأموال على الأجر الذي يتقاضاه نظير الخدمات المشروعة التي تقوم بها لهم على وجه رافع للمنازعة، يدعوهم للاطمئنان إلى إسناد أعمالهم إليها. ومتى اطمأن المتعاملون معها إلى حسن ممارستها، وإخلاص القائمين عليها، وحرصهم على تنميتها، ازداد الإقبال على الإسهام فيها، وتكثير رأس مالها، مما يؤدي إلى تفرعها في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وعندئذ تتمكن من الاستثمار لمدخرات المسلمين، ويرتبطون بها في تعاملهم. ولها في سبيل ذلك أيضًا أن تباشر تجميع أموال الزكاة، وتبثها قروضًا حسنة للمحتاجين، أو هبات لمن مستهم ضراء من حروب أو فقد عائل، حتى يكون لها بهذا نشاط اجتماعي أساسه أحكام الإسلام وتوجيهاته.

(١) الآية ٧ من سورة الحشر.

٢- الأموال واستثمارها في الإسلام

نظرة أساسية للمال ومنزلته

لعلنا ونحن نمعن النظر في القرآن الكريم نرتاد ما فيه من توجيه وإرشاد نقرأ قول الله سبحانه

﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[1]

وقوله

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾[2]

هذه الآيات المباركات من رب السموات تشير إلى قيمة المال ووضعه في أحكام الإسلام، ذلك لأن المال هو الوسيلة الفريدة والأداة الفعالة في العناصر التي لابد منها في قيام الحياة العملية لبني الإنسان، إذ إن كل ما تقوم عليه الحياة في نشوئها واكتمالها وأسباب عزها وسعادتها من قوة ومنعة وصحة واتساع سلطان وعمران كل ذلك وسيلته المال.

ومن هنا كان نظر القرآن في تلك الآيات إلى الأموال هذه النظرة الواقعية، وسوى بينها وبين الأولاد ووصفهما جميعاً بأنهما زينة الحياة، كما وصفها بأنها قوام للناس، باعتبار أنها قوام المعاش والمصالح الخاصة والعامة

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الكهف

(٢) الآية ٢٠ من سورة الفجر.

ولما كان الإسلام دينٌ وحياة، فقد أقام أحكامه على أسس من واقع مقتضيات الحياة، وزاوج في ذات الوقت بين مطلب الروح ورغائب الجسد، لا تطغى إحداهما على الأخرى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[1]

حياة الروح وحياة الجسد حياة طيبة متوازنة لا تفريط ولا إفراط، فللروح طريق سعادتها بالاتصال بربها، وللمادة طريق خيرها ونفعها، فكان الأمر من الله بتحصيل الأموال بطرق خيرة ينتفع الناس بها، فيها النشاط والعمل وعمارة الكون والاختلاط والتعارف والتعاون والتبادل.

هذا هو الإسلام يستعرض طرق السالفين في كسب المال، فيمُنّ على قريش بأن يسر لها في تجارتها ويُذكرهم بهذا الفضل

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝ ﴾[2]

ثم يوجه النظر إلى نوع آخر من المال وطرق تحصيله والسعي إليه، طريق الزراعة التي بها حياة الأرض واستثمارها، مقرراً نعمته بإعداد الأرض للزراعة، وبإنزال المياه، لإحيائها

(١) الآية ٢٤ من سورة الأنفال

(٢) سورة قريش

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝ ﴾[1]

ثم يوجه نظر الإنسان إلى الصناعة التي عليها تقوم الحضارات وهي سلم الرقي للإنسان، ولهذا يشد القرآن الكريم الناس شداً ليهديهم إلى عدد من الصناعات التي لا بد منها في كمال الحياة، فيشير إلى صناعة الحديد بقوله

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾[2]

وإلى صناعة الملابس بقوله

﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ ﴾[3]

وإلى إقامة القصور وتشييد المباني من أجود مواد الأرض

﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾[4]

(١) الآيات ٢٤-٣٢ من سورة عبس.
(٢) من الآية ٢٥ من سورة الحديد
(٣) الآية ٢٦ من سورة الأعراف.
(٤) الآية ٤٤ من سورة النمل.

وإلى صناعة الأطعمة وغيرها. فمن تتبع آيات هذا القرآن العظيم يجده قد هدى الناس إلى كثير من مطالب الروح ومطالب الجسد، وأنه دعاهم إلى كسب المال وإنفاقه في المشروع من وجوه الإنفاق:

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ۝ ﴾[1]

والقرآن حين أمر بتحصيل المال وجه إلى بعض الطرق المشروعة، وسمى هذا السعي ابتغاء من فضل الله، وشرف هذا السعي في تحصيله بأن جعله قرين الفراغ من العبادة المفروضة، ولم يأمر بالتوقف عن السعي للمال إلا لعبادة فقط، فقال:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ ﴾[2]

وقال:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾[3]

---

(١) الآيتان ٢٦ و٢٧ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٩ من سورة الجمعة.

(٣) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

ثم يعطي التوجيه العام في السعي والكسب مع المنة بتذليل الأرض وتسخيرها، لنستظهر خيرها من نبات ومعادن وغيرهما، مما أبرزه لنا العلم الحديث

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[1]

هذا القرآن قد أبان طريقه ودعوته إلى كسب الأموال وتحصيلها، فما طريقه في الانتفاع بهذه الأموال والمحافظة عليها؟ تراه يحض على الوسطية فهو ينهى عن البخل بها، ويأمر بالاعتدال في صرفها، ويجعل هذا من صفات عباد الرحمن.

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[2]

بل إنه أبان أن الإسراف فيها فيما لا نفع لها ولا ضرورة، والضن بها عن الواجبات والحقوق حسرة وندامة

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[3]

وكتاب الله كما طالب بالسعي في كسب الأموال مع الاعتدال في صرفها حذر من تحصيلها بالطرق التي تجلب الشر والفساد للناس، فنهى عن السرقة والتسول

(١) الآية ١٥ من سورة الملك.
(٢) الآية ٦٧ من سورة الفرقان.
(٣) الآية ٢٩ من سورة الإسراء.

والانتهاب؛ لأن كل هذه الطرق تنزع الأمان والاستقرار من المجتمع، ونهى عن استغلالها بالربا وبطريق الاتجار فيما يفسد العقل والصحة، كالخمر والمخدرات والخنزير أو طريق الميسر، وإقامة المراقص لإفساد الشباب وانتهاك الأعراض، وعن استغلال المال في كل ما يفسد الأخلاق ويعبث بالإنسانية، ويذهب بالحقوق والكفايات كالرشوة.

ولعل هذه الآية الكريمة قد حوت في كلماتها كل ذلك وأضعافه

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1]

ولعله ليس بالجديد هذه العناية بالأموال التي نراها تدور في آيات القرآن الكريم، وإنما كانت هذه الرعاية والهداية من رسالات السماء قبل الإسلام، لأن المال كما قيل ـ عصب الحياة ـ في كل زمان

وهذا كتاب الله يقص علينا أمر الذين عتوا عن أمره في هذا السبيل وأكلوا أموال الناس بالباطل

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝ ﴾[2]

(١) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.
(٢) الآيتان ١٦٠ و١٦١من سورة النساء.

أحلت لهم بصدهم عن سبيل لله كثيراً وأخذهم الربا

تلك إلمامة بمنزلة المال في الإسلام كما أبت بها القرآن مصادر وتحصيلاً، وإنفاقًا في الوجوه المشروعة، وسط بين ذلك قوامًا، وتحذيراً من التبذير والإسراف، ومن اكتسابه بالطرق المحرمة في الإسلام، وعاقبة هذه السلوك الاثم حتى تستقيم نفوس الأمة، وتسلم من الجشع وتمتلىء بالحكمة والأخلاق الفاضلة، ومن ثم تطيب الحياة ـ الروحية والجسدية.

من يسر الإسلام وآدابه

كان رسول الله - ﷺ - رؤوفاً بالمسلمين، رحيماً بهم وميسراً عليهم ما استطاع.

روى أحمد في مسنده أن الرسول ﷺ كان إذا بايعه الناس يلقنهم "فيما استطعت" أي يلقنهم أن يقولوا في عهدهم معه أن يفي بالعهد ما استطاعوا.

وفيما رواه البخاري ومسلم أنه - ﷺ - كان إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال "يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا".

ومما ينبغي العلم به أن التيسير أصل من أصول الدين الإسلامي، وسمة من سماته العامة.

فالتكاليف الدينية هي في حدود الاستطاعة، ذلك قول الله - تعالى -

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[1]

وقوله ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾[2]

إن هذا الدين سمح ليس فيه حرج ولا ضيق، فقد روي في السنة أن الرسول - ﷺ - قال "بعثت بالحنيفية السمحة"[3]. وهذا الحديث معبر عما جاء في القرآن الكريم ومبين له ويقول الله عز وجل

---

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٨ من سورة النساء.

(٣) رواه أحمد.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]

ويقول سبحانه

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾[2]

ويقول

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[3]

هذا أصل من أصول الدين، وقد كان ﷺ للمسلمين رقيق القلب، رفيقٌ بهم، يوصيهم بالرفق بأنفسهم والإشفاق عليها ففي السنن عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال "كنا في سفر فجعل الناس يجهرون بالتكبير - أي يرفعون أصواتهم به، فقال النبي ﷺ :أربعوا على أنفسكم - أي ارفقوا بأنفسكم وخففوا عنها، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا بصيرًا، وهو معكم".

وفيما رواه البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت "قال رسول الله ﷺ إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله .

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم.
(٢) من الآية ٧٨ من سورة الحج
(٣) من الآية ٦ من سورة المائدة

ولقد كان رسول الله - ﷺ - يحث أصحابه وعماله على الرفق، واللين، والتيسير على الناس.

وما أحوج مجتمعاتنا اليوم، على اختلاف طبقاتها من عمال وتجار وصناع وكل من ولي أمراً للمسلمين، إلى الأخذ بوصايا رسول الله بالرفق، والرحمة، والتيسير على الناس في شؤونهم وحوائجهم.

روى مسلم عن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: من يحرم الرفق يحرم الخير. وها نحن أولاء إذا طالعنا أقوال سلفنا الصالح من العلماء المجتهدين نجد أنهم قد أجهدوا أنفسهم في استنباط الأحكام الشرعية والتشريعية، واضعين في اجتهاداتهم، وفهمهم للنصوص العامة في القرآن والسنة التيسير على الناس في العبادات والمعاملات اقتداء بالنصوص الصريحة في التيسير. ألا نرى أن الله حين شرع الطهارة للصلاة بالوضوء أو الاغتسال بالماء جاء بالبديل عند فقده أو تعذر استعماله، فشرع التيمم؟ وحين فرض الصوم في شهر رمضان رخص فيه الفطر للمريض والمسافر؟ وجعل العرف المستقر الصالح بمعيار الإسلام سنداً وأصلاً للتشريع كما قال الله تعالى:

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[1]

وفي الآثار المروية عن ابن مسعود: "ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن". وقوة العرف تكمن في حاجة الناس إليه، ذلك أن استحسان الناس لعادة من العادات التي ارتضاها المجتمع، معناه أن المجتمع لا يمكن أن يجمع على عرف أو عادة ما لم يكن ذلك مسيئًا لحاجة ملحة، ولا شك أن الأحكام التي وكلها

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف.

الإسلام للعرف أو العادة تتغير كلما تراجعت أصولها أو تبدلت، وذلك من يسر الإسلام وسماحته.

ولعلنا نقتدي ونستلهم الهداية والإرشاد من الدعاء الذي دعا به رسول الله ﷺ - فيما روى الإمام مسلم في صحيحه - حين قال: "اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشقّ عليهم - أي قسا عليهم - فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم - أي رأف بهم قولاً وفعلاً - فارفق به".

العلم والتعليم في الإسلام

لقد افتتح الله ـ سبحانه ـ وحي القرآن الكريم إلى الرسول محمد ـ ﷺ ـ بقوله تعالى

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾(١)

وفي هذه حكمة بالغة لمسلمين، ودعوة إلى أمة الإسلام أن تعمو، و صلبوا لعلم، كل العلم.

لقد أكد لقران هذه الدعوة في لعديد من آيته، فتراه يفاضل بين الذين بعلمون و لذين لا يعلمون، وتراه يشير إلى صنوف من العلوم والمعرف، اصطلحت على تسميتها بعلم الفلك و لتقويم وعلم الصحة وعلم الملاحة والأحياء والصناعات و لفنون وسائر لمخترعات مما أفاض الله علمه ـ ومايز ل ـ على بني الإنسان، سبحانه – علم الإنسان ما لم يعلم

ومازال الإنسانية تتقدم في العلوم والاستكشافات بالصبر والمثابرة، والنظر في الكون وما فيه من عجائب وغرائب لفت لقرآن إليها الأنظار، وكم من مبتكرات جاءت على مثال أجهزة جسم الإنسان الذي لفت الله الأنظار إلى كمال صنعه له، حين قال

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ ﴾(٢)

---

(١) الآيات ١ ـ ٥ من سورة العلق

(٢) الآية ٢١ من سورة الذاريات.

«وطلب العلم فريضة على كل مسلم» كما أخبر رسول الله - ﷺ - في الحديث الشريف الذي رواه البيهقي عن أنس. فعلى كل من المسلم والمسلمة، أن يطلب العلم ويسعى إلى تحصيله.

وكلمة العلم في الحديث معرفة بالألف واللام، فأي علم يعتبر طلبه والسعي إليه فريضة؟ ثم لهذا الحديث مضمون فردي ومضمون جماعي، ومعنى هذا أن ما يعتبر فريضة على مسلم يعتبر مرحلة على الطريق بالنسبة لمسلم آخر.

كما يشير الحديث إلى أن هناك حداً أدنى للعلم المفروض طلبه، وهو ما يصح به دين المسلم، ويتيسر له به كسب رزقه.

ومن ثمّ فالعلم الذي يتعلق بالدين مما يصح به العقيدة والعبادة من توحيد ومن صلاة وصوم وزكاة - إذا وجبت عليه - وحج - إذا كان مستطيعاً - فرض يجب عليه طلبه.

وكذلك العلم الذي يتعلق بالحياة اليومية على المسلم أن يتعلمه، لاسيما وفروع العلم متجددة كما تجددت المسؤوليات التي تواجه المسلم.

تلك معالم المسؤولية الفردية نحو فرض طلب العلم، أما على المستوى الجماعي فإن العلم المفروض طلبه على وجه الإجمال هو ما يصح به دين الجماعة ودنياها.

ولقد كان من التطبيق العملي لطلب العلم في العصر النبوي هو ما صنعه رسول الله - ﷺ - حين جعل فداء كل أسير يقرأ ويكتب أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، ولا يغيب عن الذهن أن هذا هو باب العلم والتعليم. ومن ثَم، كان توجيه الله في أول ما نزل من القرآن

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[1]

وأقسم الله بالقلم فقال

﴿ نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ ﴾[2]

توجيها لأهمية القلم والتعليم.

وقال الله تعالى

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ﴾[3]

فانظر كيف بدأ - سبحانه وتعالى - بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفًا وفضلاً وجلاءً ونبلاً، وقال تعالى

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[4]

(١) الآيات ١ - ٥ من سورة العلق.
(٢) الآية ١ من سورة القلم.
(٣) الآية ١٨ من سورة آل عمران.
(٤) من الآية ١١ من سورة المجادلة.

وفي الحديث عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال قال رسول الله - ﷺ - «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله - عز وجل - حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير» متفق عليه.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة، ما بين الدرجتين مسيرة ٥٠٠ عام.

ومن الآثار التي وردت في فضل العلم ومكانته قول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق.

وقد قيل ليس شيء أعز من العلم الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وهذا باعتبارهم أهل الحكمة والمشورة، وموئل الفكر والتقدير، كل في تخصصه، وفيما يحسنه.

وقد أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم بالتعلم، فقال - تعالى -

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾[1]

وقال - عز وجل -

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2]

---

(١) الآية ١٢٢ من سورة التوبة

(٢) الآية ٤٣ من سورة النحل

وقد قال الرسول ﷺ: «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع»[1]

فأعظم الأشياء رتبة في حق الإنسان السعادة الأبدية، وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها ولن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل، ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم، فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم، فهو إذاً أفضل الأعمال وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته، وثمرة العلم القرب من رب العالمين، والالتحاق بأفق الملائكة، هذا في الآخرة. وأما في الدنيا، فالعز والوقار ولزوم الاحترام في الطباع، فإذا كان العلم من أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل.

وقد قيل للإمام مالك ـ رضي الله عنه ـ ما تقول في طلب العلم فقال (حسن جميل، ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه)، فقال العلم نور يجعله الله حيث يشاء، وليس بكثرة الرواية، وهذا الاحترام والتوقير منه للعمل يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى.

وكان الإمام أبوحنيفة ـ رضي الله عنه ـ عابداً زاهداً عارفاً بالله تعالى، خائفاً منه، مريداً وجه الله تعالى بعلمه، وقد دعي إلى ولاية القضاء، فقال: أنا لا أصلح لهذا، فقيل له لم؟ فقال: إن كنت صادقاً فما أصلح لها، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء، وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفته بالله عز وجل: فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا.

ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر ركنوا إلى الكسل حتى خمدت ملكتهم وجمدوا على ما تركه أسلافهم واهمين أن ما ورثوا هو كل العلم، غافلين عن أن العلم إذا ركدت أدواته فقد حركته، ولم يعد مثمراً ولا منبتاً.

---

(١) رواه أحمد في مسنده من حديث أبي الدرداء

ولقد ظلوا كذلك عاكفين على ما ألفوا بينما غيرهم يتسابقون من حولهم في آفاق من العلوم والمعرف، فنشط الآخرون إلى اكتسابهم العلم القادر على أن ينظم حياه المجتمع ويرتقي بها ويضع كل فرد في مكانه المناسب ويحدد له مسؤولياته، حتى يقوم بعمله مخلصاً فيه، مؤمناً به بحيث يؤتي العمل ثمرًا ينعم بها الفرد والمجتمع.

وفي هذا العصر تنوعت آفاق المعرفة والعلوم، وصارت مجال تنافس وتسابق بل صار الصراع العلمي حاداً بين القوى العظمى في العالم وجاداً في المعامل ومعاهد البحوث، فضلاً عن العلوم النظرية الأخرى.

ولست بحاجة إلى أن أوجِّه النظر إلى ما امتلأت به أجواء الفضاء من أقمار ومركبات، ترقب وترصد كل حركة على الأرض وفي أعماق البحار.

ومازال أبناؤنا منصرفين في طلب العلم إلى العلوم التقليدية، مترقبين للتوظيف، قانعين بما حصلوا من علم وتوصلوا به إلى الشهادة التي يأملون.

إني أذكر أبناءنا وبناتنا أن طلب العلم كل العلم النافع للدين والدنيا أمر يحث عليه الدين ويلتقي معه.

إن الطالب أو الأستاذ يعكف على البحث العلمي في مركزه ومعامله، يؤدي للأمة جهداً لا يقل عن جهد المحارب الذي يحمل السلاح في ميدان القتال ولا عن جهد السياسي الذي يبذل قدراته في مجال السياسة ولا عن جهد رجل الاقتصاد الذي يدبر الموارد المالية ويبتكر طرق تحسينها ويعالج آثار الإسراف والإتلاف على مصادر التمويل.

إن استقلال الأمة - وإن كان مظهره الاستقلال السياسي - بأن يكون للوطن كيانه المستقل ومظهره الدولي وعناصره المحلية من علَمٍ ودولةٍ ونشيدٍ وجيشٍ، فإن

هذا كله يعد مرحلة أولى للاستقلال ولابد بعد هذا، بل ومعه، من الاستقلال الاقتصادي؛ حيث تقوم الدولة على مقومات اقتصادية تعتمد عليها قوتها الذاتية.

ومع ذلك فلا بد من العلم والذاتية العلمية للدولة، بمعنى أن تكون قادرة علميًا على صون استقلالها السياسي وإدارة اقتصدها وتنميته، وذلك بتربية الكفاءات القادرة على رسم المستقبل وصيانته والدفاع عنه وتوجيه النهضة العلمية إلى الابتكار، دون الاقتصار على التقليد والاستيراد.

ولا بد أن يحوط كل ذلك ذاتية ثقافية عامة نابعة من الدين والعادات والأعراف والتقاليد، وأن تكون لها حضارتها ذات الخصائص المتميزة؛ فلا تذوب في غيرها، بل لا بد أن تحتفظ بسماتها في اللغة والعادات اليومية والملبس وطرائق التفكير والتعبير.

تلك مجالات طلب العلم، لا يختلف الإسلام معها ولا يختلف عنها، وإليها ينبغي أن تتجه طاقات شباب الأمة دراسة عميقة معبدة، وأن يتخلص من السطحية التي غلبت في الدراسة وفي التحصيل، وأن تكون له مكتبته التي يجلس إليها وذات علاقة بما استماله من فروع العلوم.

إنني أدعو الشباب إلى طلب العلم، كل العلم، والإقبال عليه كما أدعوهم إلى الإقبال على الإسلام علمًا وعملاً، وليتعلموا من الدين ما وسعهم وما تصلح به حياتهم وصلتهم بالله وبالناس وبالأسرة بوجه خاص. وأهيب بأولئك الشباب الذين انصرفوا إلى الدين، ولكنهم تحولوا إلى نوع من الانطواء المذهبي أو الطائفي أو العقائدي، واستبدلوا بالسماحة التي هي سمة الإسلام سمات الريبة والغلظة والتقوقع في مجموعات أو جماعات عزلها انطواؤها عن فئات المجتمع الإسلامي، وظنت أنها على الحق وغيرها على الباطل، فنفرت من المجتمع وتحولت بطاقاتها

إلى صراع معه أو مع الدولة أو مع الحكم دون سند أو سبب مشروع. وبدلا من أن تستهلك طاقات هؤلاء الشباب فيما ينفع الأمة، تستنفد في الصراعات الداخلية. هكذا تتشعب المسالك التي تؤدي إلى المهالك.

أيها الشباب خذوا من الإسلام سماحته في الصلة بالله وبالناس وأصلحوا ذات بينكم بالحسنى وبالموعظة الخالصة، وكفوا عما شغلتم به أنفسكم وغيركم من صغار الأمور التي رفعتموها إلى رحاب العقيدة وفروض الشريعة.

تحملوا المسؤولية المنوطة بكم، وآمنوا بالله وبالإسلام الذي أمر بالعلم والعمل، واعلموا أن العلم المطلوب ـ بعد العلم بأمور الإسلام ـ هو العلم الذي تصلح به هذه الحياة بنمدها وبحميها وترهبون به عدو الله وعدوكم، وترفعون به قدر أمتكم والله معكم ولن يتركم أعمالكم.

أهمية النية في الإسلام

عن عمر بن لخطاب ـ رضي ٭ه عنه ـ قال سمعت رسوں ٭ه ـ ﷺ ـ يفول «إىما لأعمال بالىيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى ٭ه ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومں كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يںكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» متفق عليه.

قال النووي ـ رحمه الله ـ في شرح هدا الحديث أجمع لمسلمون على عظم موقع هدا الحديث وكثرة فائدته وصحته. قال الشافعي وأخرون هو ثالث الإسلام. وقال الشافعي أيضًا إنه يدخل في سبعين بابًا من الفقه. وقال آخرون هو ربع الإسلام، ونقل أن سبب هذا الحديث أن رجلا من قريش هجر إلى لمدينة مع المسلمين من أجل امرأة يقال لها «أم قيس» فعرّض به النبي ـ ﷺ ـ تعبيرً للناس من هذ القصد وحثًا على أن تكون الهجرة وكل عمل ابتغاء مرضاة ٭ه وتنفيذًا لشرعه.

وهذا الحديث الشريف يؤصل لنا أهمية النية، ومدى تأثيرها على الأعمال قبولاً وإسقاطًا، ومدى خطورتها واستحقاق المثوبة عليها.

فإن تصدق شخصان بصدقة، وكان أحدهما قد سواها خالصة لوجه ٭ه أثابه ٭ه عليها وكان الاخر قد تظاهر بها رياءً وطلبًا لثناء الناس عليه، كتبت عليه وزرًا

وإذا أصال شخصان الصلاه وأكثر منهم فإنما يقبل الله صلاة من أحسن النية وأخلصها ابتغاء مرضاته وخشية عقابه. أما الاخر الذي صلى رياءً وطلبًا لثقة الناس، فقد انقلبت صلاته وزرًا وكان حصادها إثمًا.

فمن فقه هذا الحديث الشريف إن الله لا يتقبل من الإنسان أي عمل بدون نية خالصة لأن النية في الإسلام شرط لا يقبل الله العمل إلا بها

هذه الصلاة يدخلها المسلم بالنية، ومستحضراً بها قلبه، مسلماً بها وجهه لربه، متفرغًا عن كل شاغل، متجرداً من كل عرض إلا السجود والطاعة لله الذي خلق الإنسان فسواه فعدله في أي صورة ما شاء ركبه.

ومن فقه الحديث أن الإسلام يهتم بالجوهر قصداً إلى تنقية القلوب من الغلّ والحقد، إذ متى انعقدت النية على العمل عبادة لله وحده كان الأداء طيبًا مثمراً قلبًا وقالبًا. ويؤيد هذا الحديث الشريف الذي قال به رسول الله - ﷺ - «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم وأعمالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[1]

ولقد حذر رسول الله - ﷺ - من انصراف النية في الأعمال إلى غير الله، لما في ذلك من أخطار ومساوئ، فقال - ﷺ - «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال «الرياء، يقول الله يوم القيامة، إذا جازى العباد بأعمالهم، اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»[2].

وفي إخلاص العمل لله - سبحانه - أيًا كان نوعه، فوائد جمة أهمها

١- أنها تحث المسلم على عمل الخير وإتقانه والإخلاص فيه، إذ متى انصرفت النية للعمل لله وحده، فقد راقبه العامل، وجعل الله أمامه في أي عمل أسند إليه، وأي مكان وجد فيه فراقب به فأتقن عمله فاستفاد وأفاد مجتمعه.

(١) حديث متفق عليه.

(٢) حديث متفق عليه.

وهذا هو الإحسان الذي عرفه الرسول - ﷺ - في قوله «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[1]

٢ - إن النية ومراقبة الله تبعد عن فعل الشر والاقتراب منه، لأن العامل يراقب ربه ويخافه، ويعلم أنه مطلع عليه وعلى أفعاله.

٣ - إن النية تجعل العمل من المسلم هدفًا ومقصداً. وبذلك تكون حافزًا له على فعل الخيرات مرضاةً لربه وقضاءً لحوائجه وخدمةً لمجتمعه.

٤ - النية تنقي صدر المسلم من الحقد والحسد وسوء الظن وبها تصلح القلوب وتسلم النفوس، وتحجم الأعضاء عن الأذى والسوء والآثام، ذلك فقه قول الرسول - ﷺ - الذي رواه أحمد بسنده «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله. ألا وهي القلب»[2].

وصدق الله في قوله - تعالى -

﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝ ﴾[3]

---

(١) من حديث طويل متفق عليه

(٢) من حديث طويل متفق عليه.

(٣) الآية ٥ من سورة البينة.

نظرة الإسلام إلى المال والعمل

الإسلام هو الدين الوسط الذي وازن في تشريعه بين احتياجات بني الإنسان في هذه الحياة.

وقد أقامت شريعة الإسلام نظاماً ماليًا متوازنًا لتحقيق هدف إعمار الأرض وإسعاد البشر. وفتح الإسلام أبواب الرزق الطيب وحث عليه وأتاح الفرص لتنمية ثروة الأفراد وحرص الإسلام على تهيئة المناخ الصالح الخالي من الفساد، كي تنمو شجرة المال الإسلامي مباركة مثمرة طيبة.

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بطرق كسب المال، باعتباره قوام الحياة للفرد والمجتمع، ولذلك حث على العمل والكسب، ففي سورة الجمعة قول الله ـ سبحانه ـ

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1]

وفي سورة الأعراف قول الله ـ سبحانه ـ

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[2]

وجاء في الأثر:

«الدنيا خضرة حلوة من اكتسب فيها مالاً من حله وأنفقه في حقه، أثابه الله وأورده جنته، ومن اكتسب فيها مالاً من غير حله، وأنفقه في غير حقه أحله الله دار الهوان».

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة.

(٢) الآية ١٠ من سورة الأعراف.

وفي القرآن الكريم، في سورة البقرة قول ـه ـ سبحانه ـ

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّ فِي ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1]

وفي السنة الشريفة قول الرسول ـ ﷺ ـ «أيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به».[2]

ولقد اعتبر الإسلام الساعي على رزقه، كأنما يسعى في سبيل الله، فقد جاء في الحديث الشريف «.. وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله».

والعمل أصله حلال، والحرمة أمر طارئ عليه، ولهذا لم يحرم الإسلام من وسائل الكسب إلا ما كان به ظلم أو بخس أو غبن أو استغلال أو اتجار في المحرمات أو فيما يضر الناس أو يؤدي إلى تكديس الأموال وعدم استثمارها، وهذا ما أشار إليه قول الله ـ سبحانه ـ في سورة التوبة

﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[3]

---

(١) الآية ١٦٨ من سورة البقرة

(٢) رواه الطبراني

(٣) من الآية ٣٤ من سورة التوبة

إذ إن أحد وجوه الاكتناز حبسها عن التداول والتدوير في أنواع الكسب المباح من تجارة وزراعة وصناعة، واستغلاله كذلك في القروض الربوية المحرمة، لأن في هذا حبساً لتلك الأموال عن النفع العام. ومن ثم، فإن من صور الكسب الحرام استغلال المال بالإقراض المحرم أي بالفوائد.

ومن صوره التجارة في المحرمات وصناعتها، كالخمور والمخدرات، وفاسد الأطعمة والأشربة والميتة والأصنام.

ومن صور الكسب الحرام خلط السلع أو إخفاء عيوبها، إذ إن هذا محرم، وقد حكم رسول الله ـ ﷺ ـ بأن «من غش المسلمين فليس منهم».

أو التدليس ومنه بيع النجش ـ أي المزادات غير المنتظمة ـ والتي يتدخل فيها بعض الناس لرفع الأسعار قصد الإضرار أو بيع الشيء بأكثر من قيمته الفعلية.

ومن المحرمات في العمل استغلال الأجير وانتقاص حقوقه، وبخس الناس أشياءهم، واحتكار الأطعمة وما يحتاجه الناس ويشح في الأسواق استغلالاً لحاجة، وفي مثل هذا جاء الحديث الشريف الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنت خصمه خصمته: رجل أعطى بي ثم غدر ورجل باع حراً فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فستوفى منه ولم يوفه»[1]

ويقول الله ـ سبحانه ـ في مثل هذا

﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[2]

(١) جمع الأحاديث جـ٢ صـ٦٧٩.

(٢) الآية ١٨٣ من سورة الشعراء.

ومع الحث على الكسب الحلال والترغيب في العمل المنتج المثمر المفيد للفرد وللمجتمع، وضع الإسلام ضوابط على الإنفاق، وذلك لضمان حسن استثمار المال فيما يخدم مصلحة الأمة، وكي لا يترك الأمر دون ضوابط. وكان مما حرم في الإنفاق الرشوة وأكل الأموال بالباطل والسفه بالإنفاق فيما لا يقره الشرع والعقل.

ولقد حفلت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول - ﷺ - بالآيات والوصايا التي تنظم كسب الأموال، وإنفاقها في الأوجه المشروعة، وتحث على الاعتدال. وامتدح القرآن صاحب المال الذي يتقي الله فيه ذلك قول الله - سبحانه - في سورة الليل

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[١]

(١) الآيات ١٧ - ٢١ من سورة الليل.

تكريم الله للإنسان وحرمة
قتل النفس إلا بالحق

هذا الإنسان صنع الله الذي أتقن كل شيء، خلقه فسواه فعدله. وقد امتن على هذا الإنسان بتكريمه إياه حيث جعل له شرفا وفضلاً، وهو تكريم ينفي النقصان، فقد جعله بشراً سوياً على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، مما لا يصح لغيره من المخلوقات الحيوانية، فكان له إرادته وقصده في تدبير شؤونه، وليس كغيره مما يشاركه في الحيوانية يقاد ويساق، ويُستخدم، وخصه الله بالمطاعم المتنوعة والمشارب والملابس، وهذا مالا يتسع فيه حيوان اتساع بني آدم، الذين يكسبون المال لأنفسهم خاصة دون سائر الحيوان ويلبسون الثياب، مع أن غاية كل حيوان أن يأكل لحماً نيئاً، ثم إن الإنسان يتناول طعامه بيده وهو مميز كذلك بالنطق والإفصاح عما يريد بعبارته، وإن اختلفت لغات بني الإنسان، وهو مسلط على سائر المخلوقات ينتفع بها ويسخرها، وكأن عقله هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصله إلى تصديق رسل الله الذين من أجله ابتُعثوا إليه لهدايته، وأنزلت الكتب من عند الخالق سبحانه وقد مثل الأقدمون شرع الله بالشمس، والعقل للإنسان بالعين، فإذا كانت سليمة وفتحت، فرأت كل شيء، وأدركت تفاصيل كل شيء، ولا يفاصل بين الإنسان وبين غيره من الحيوانات بعظم الجسد أو بقوته، فقد جُعلت في بعض الحيوان خصالٌ غير متوفرة في بني الإنسان كسرعة جري الفرس، حتى اتخذه الإنسان معياراً لتقدير القوة، وضخامة جسد الفيل وقوته والشجاعة في الأسد، وإنما كان التكريم للإنسان وتفضيله على ما سواه بالعقل.

تلك منّة جلية من الله العليّ الأعلى على إنسان هذا الوجود، ساقها الله في القرآن مذكرًا بنعمه على هذا الإنسان ونسله

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي ءَادَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1]

لقد كرم الإسلام الإنسان حيًا وميتًا، فهذا رسول الله محمد ـ ﷺ ـ ينهى عن كسر عظم الميت بقوله "كسر عظم الميت ككسره حيًا".[2] وأوجب الإسلام في شريعته دفن الإنسان في باطن الأرض أو في مقبرة، تكريمًا وبعدًا بجسده عن أن تنهشه السباع والكلاب والطير.

وحين قتل ابن آدم أخاه فيما مضى من الزمان، كانت هذه أول حادثة قتل وموت في ذرية آدم، كما أنبأ بها القرآن في قول الله سبحانه

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝ ﴾[3]

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء.

(٢) رواه أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) الآيات من ٢٧ ـ ٣٠ من سورة المائدة.

ويعد هذا الجرم الأول من الإنسان لأخيه الإنسان. وكانت حيرته كيف يتصرف في هذا الجسد الذي أفقده عقله وحركته، وصار عبئًا يحمله كما يحمل إثم جريمته الأبدية؟

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾[1]

ثم كان شرع الجزاء

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2]

وبهذا القضاء من الله كان قتل النفس الإنسانية عمداً بغير حق، جريمة منكورة لا يقرها شرع، ولا يتقبلها وضع، ولا يستسيغها مجتمع. وكانت غاية شرائع الله - خالق الناس وهذا الكون - المحافظة على حياة بني الإنسان وصون حياتهم، فلا تُهدر دماء إنسان، أي إنسان، إلا إذا قتل إنساناً عمداً، وكان مفسداً في الأرض. وجاءت شريعة الإسلام - خاتمة الشرائع - مقررة القصاص من القاتل عمداً بغير حق أو فساد في الأرض في قوله سبحانه

(١) الآية ٣١ من سورة المائدة.
(٢) الآية ٣٢ من سورة المائدة.

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

هذه القاعدة شددت في التهديد من قتل الإنسان بغير حق التنفير منها، والنكير عليه، وبينت أحكامه الدنيوية، وفي الآخرة تحذيرً للنفوس من ارتكابها صيانةً للأرواح، وقطعًا لعوامل الشروع، وعملاً على استقرار الأمن في المجتمع، لكل ممكن من الوسائل.

وتأيدت هذه القاعدة بآيات كثيرة في القرآن، منها

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[2]

وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما "أول مايُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء".

ولقد شرع الله القصاص من القاتل عمداً بغير حق – عقوبة في الدنيا حقنًا لدماء الناس وكفًا للعدوان على الأرواح، ودفعًا للأحقاد من النفوس.

وقد أُتفق على أن القصاص في القتل العمد لا يقيمه إلا أولوا الأمر الذين فُرض عليهم النهوض بالقصاص وإقامة الحدود، وغير هذا من العقوبات حتى تنقطع الخصومة فليس لولي القتل أن يقتد لقتله بنفسه أو قبل الحكم باستحقاق القصاص من السلطان، أو من أنابه في القضاء أو التنفيذ، إذ السلطان قائم مقام الأمة والمجتمع على ما يفيده الخطاب في الآية ١٧٩ من سورة البقرة حيث خاطبت

(١) الآية ١٧٩ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٩٣ من سورة البقرة

جميع المؤمنين بالقصاص، ولا يتأتى أن يقوم كل المؤمنين بالقصاص. فأقاموا السلطان مقام أنفسهم في إقامته القصاص، وغيره من الحدود بشروطها، بل وغير هذا من التعازير.

وتخريجاً على هذا، فلا يحل لأحد أن يقتص من قاتل أو يأخذ حقًا يدعيه لدى آخر إلا بمعرفة السلطان بنفسه أو من ينيبه، لأن الله هو الذي شرع إقامة السلطان ليقبض أيدي النّاس بعضهم عن بعض.

أما سلطان أولياء القتيل، فهو حقُّ طلب القصاص من السلطان فحسب أو العفو عنه.

وسيظل قول الله العدل هداية للبشرية

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾[1]

(١) الآية ١٧٩ من سورة البقرة

المسلم كيف يكون مع خالقه ومع مجتمعه؟

لقد ساق إلينا الذكر الحكيم كتاب رب العالمين قوله ـ جل شأنه

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾[1]

والإسلام يعني أن يسلم الإنسان نفسه ووجهه وقلبه لخالقه جل علاه، فيراه الله حيث أمره ولا يراه حيث نهاه

ومن هنا، كان على المسلم ـ في إطار ذلك ـ أن يتقي الله ويرعاه، ويدرك أن عبوديته الصادقة لله هي مصدر شرفه وفضله وعزته، لأنها عبودية ترقى به عن أن يكون عبداً لماله قال رسول الله (ﷺ) "تعس عبد الدينار وعبد الدرهم"[2]، أو أن يكون عبداً لهواه؛ قال تعالى

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[3]

أو أن يكون عبداً لشيطانه

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾[4]

---

(١) الآية ١٩ من سورة آل عمران.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، صحيح البخاري جـ ٦ صـ ٦٧.

(٣) الآية ٢٣ من سورة الجاثية.

(٤) الآية ٦٠ من سورة يس.

أو أن يكون عبداً لأي شيء سوى الله

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾[1]

وبهذه العبودية الخالصة المخلصة، تقوى صلة الإنسان بربه ويكون أهلاً لرضاه وحبه، آمناً من مؤاخذته وغضبه، فما أقل حياة من يطمع في فضل الله بغير عمل، وإن كان لا حرج على فضل الله.

ولا شك أن تلك العبودية الصادقة تنعكس على علاقة الإنسان بمجتمعه لأنه يأخذ نفسه بما أمر به دينه، والمسلم كما وصفه رسول الله - ﷺ - "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[2] "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً."[3] وقال أيضاً "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى."[4]، إلى غير ذلك مما يجب أن يكون عليه المسلم في علاقته بالآخرين حتى في ظل التكاليف الشرعية.

وما تعبَّد الله به عباده من فرائض وطاعات، نراها تثمر خير الإنسان وخير المجتمع، ألم تر إلى الصلاة مثلا كفريضة من أهم الفرائض، بل هي عماد الدين، يحدثنا عنها القرآن الكريم قائلاً

---

(١) سورة الإخلاص.

(٢) رواه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة، مجمع الفوائد جـ ١ صـ ٢٠.

(٣) رواه الشيخان عن أبي موسى الأشعري.

(٤) رواه الشيخان عن النعمان بن بشير.

﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾[1]

وهذا يعني أن الصلاة إذا أُديت كما ينبغي أن تكون من خشوع في أدائها، ومحافظة على أوقاتها تبني مجتمعًا ملائكي السلوك، مُطهرًا من الفحشاء والمنكر، لا يبغي فيه إنسان على مخلوق طاعة للخالق، وطلبًا لثوابه ورهبة من عقابه، ولا يضمر أحد لأحدٍ شرًا، وإنما يتعايش الجميع في ظل التعاون والتراحم والتكاتف والتلاحم على تقوى من الله ورضوان. وليست الصلاة وحدها هي التي تحقق ذلك، وإنما سائر العبادات تبني المسلم الصالح الذي به يتكون المجتمع الصالح، والذي جاء الإسلام يؤسسه ويبنيه ويشيده ويعليه. فالمؤمن للمؤمن فيه كالبنيان يشد بعضه بعضًا، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى بعضه اشتكى كله، وبهذا يتحقق وصف الأخوة الذي أسبغه الله على مجتمع الإسلام عندما قال في كتابه الكريم

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾[2]

وصارت هذه الإخوة نسبهم، وحلقة الوصل فيما بينهم، في ظلها يتشاورون في شتى حوائجهم، ويتسابقون إلى خيرهم، يؤثر كل منهم أخاه ولو كان به خصاصة، يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، ممتثلين أمر الله في القرآن

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾[3]

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.
(٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات.
(٣) الآية ٤٦ من سورة الأنفال.

وقوله سبحانه

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[١]

(١) من الآية ٢ من سورة المائدة

من اجتماعيات الإسلام حق الطريق (1)

تتفوت الروابطُ التي تكون العلائق بين أفراد المجتمع. ففد تكون هذه لرو بطُ مادية، نفعيةً ومصلحيةً، أي أنها تقوم على عنصر مادي هو نبادل المنافع والمصالح فحسب. وهو بهذا مجتمع مادي!

وقد نكون العلاقه بين الأفراد إنسنيه. بمعنى أنها تقوم على المودة و لتعاون، كمعان وراء نبادل لمصالح والمنافع، دون أن تكون هذه لأخيرة هي لهدف والمقصد، فهذا مجتمع إسناني.

وجء الإسلام بتكوين المجتمع الإنساني الإسلامي، فدعا إلى تمكين لروابط الإنسانية بين الأفراد، كما دعا إلى تبدل المنافع والمصالح المادية باعتبرها حاجات للإنسان، ولكن في محيط العلاقات الإنسانية.

ومن هنا، جاءت دعوة الإسلام إلى تكوين اجتماعيت تتناسق مع أهداف لمجتمع لإنسني الإسلامي. تقوى بها روابطه وتنمو به صلاحياته لتقدم و لرقي فكان قول الله ـ تعالى

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1]

---

(١) من لآية ٢ من سورة المائدة.

كان هذ الفول لكريم قاعدة عامة لتكوين نسيج المجتمع لإسلامي على أفضل ما تقوم عليه لمجتمعات أمر بالبر والتقوى ونهى عن الإثم والعدوان، أمر جماعي إلى كافة أفراد المجتمع، ونهي جماعي كذلك.

وهكذا كان منهج الإسلام في القرآن وفي سنة رسول الله - ﷺ - إلغاء الظواهر المادية الصرفة، كعلاقة في المجتمع، وغرس البديل لها من العلاقات الإنسانية المثمرة خيراً وبراً وبركةً لبني الإنسان.

فقد هدت نصوص القرآن والسنة النبوية الأعراف والعادات المنحرفة عن الصراط المستقيم، المنافية للذوق الرفيع والتوجيه وعدلتها إلى ما هو خير وأجدى فعن أبي سعيد - رضي الله عنه - أن رسول الله (ﷺ) قال: إياكم والجلوس على الطرقات." قالوا: يا رسول الله ما لنا بدّ من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله - ﷺ - إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه." قالوا: "وما حق الطريق يا رسول الله؟" قال: "غض البصر وكفّ الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[(١)]

ففي هذا الحديث الشريف تهذيب لعادة جارية بين الناس، منذ أن كانت المجتمعات، وهي التنادي إلى مكان عام يلتقون فيه وتدور أحاديثهم، وقد تكون هازلة جارحة ماجنة، تصوب لبصر إلى الرائحين والغادين رجالاً ونساء، يتتبع الجالسون في الطرقات أو الواقفون على نواصي الشوارع كل السائرين يتفحصون قسماتهم وثيابهم، يمسحونهم بأبصارهم طولاً وعرضاً في تعليق ساخر.

(١) رواه البخاري ومسلم، وأحمد في مسنده.

فجاء هذا القول السديد من صاحب الخُلق العظيم رسول الله - ﷺ - موجها مهذبا بعد إذ لمس حاجتهم إلى جلوس الناس حيث اعتادوا على الطرقات، قال "فأعطوا الطريق حقه." ولمّا استفسروا عن حق الطريق، قال "غض البصر وكفّ الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبهذا وجه الرسول - ﷺ - أولئك الذين اعتادوا الجلوس على الطرقات أن يغضوا أبصارهم عن انتهاك حرمات السائرين في الطرقات، متتبعين حركات أجسادهم، متفقدين ثيابهم، يستنطقونها ما حوت وسترت، فيخجل أولئك رجالاً كانوا أو نساء، وقد تتعثر خطاهم من فرط الخجل، ويقعون في حيرة وقلق عن دواعي هذه الملاحظة بالنظر إليهم

وغض البصر هذا مأمور به في القرآن الكريم صراحة في سورة النور التي تحوي الكثير الوفير من اجتماعيات الإسلام، قصداً إلى إقامة مجتمع إنساني إسلامي.

ففي هذه السورة

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[1]

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾[2]

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النور

(٢) من الاية ٣١ من سورة النور.

ومن حق الطريق «كف الأذى» فقد يتعرض الجلوس على الطرقات لإيذاء المارّين بسوء القول وزوره، أو بفعل يلحق الأذى بأجسادهم ونفوسهم وأموالهم، وفي هذا عدوان على الناس وتعريضهم للمهانة، ولقد حذر القرآن الكريم من إيذاء الناس بغير حق، فقال الله - تعالى - في سورة الأحزاب

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾[1]

ومن حق الطريق «رد السلام»

ذلك لأن من سنن الإسلام تحية المسلم لمسلم بالعبارة المأثورة في السنة «السلام عليكم ورحمة الله» لأن إفشاء السلام - أي تبادل هذه العبارة - يدل على اجتماع الكلمة والمودة والمحبة بين المسلمين، وهو عام، أي لا يختص إفشاء السلام بالمتعارفين فحسب، وإنما من سنن الإسلام إفشاء السلام بين كل من عرفت ومن لم تعرف، كما جاء في حديث الرسول - ﷺ - الذي رواه الشيخان وغيرهما، عن عبدالله بن عمرو بن العاص، أن رجلاً سأل النبي ﷺ «أيُّ الإسلام خير؟ قال تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وردُّ السلام - أي الرد على من يسلم عليك - هو رد على التحية التي أهديت لك من آخر أو آخرين، وهذا الردّ واجب حتم بأمر الله - سبحانه - في قوله في سورة النساء:

(١) الآية ٥٨ من سورة الأحزاب.

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾[1]

وهذا أدب اجتماعي كريم تنمو به العلاقات الاجتماعية بين الأفراد والجماعات، وإفشاء السلام من خير الأقوال البارة الودودة، ينبغي أن نحرص على هذه الصيغة التي تلقيناها عن الإسلام، نتبادلها ونعلمها أولادنا ونساءنا، إنها عنوان على أن السلام له في الإسلام مكان كبير، إنها عبارة تضفي على نفس من ألقاها ومن ألقيت إليه الأمن النفسي، والأمان على كافة الماديات الجسد والمال.

«والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، أي النصح بسلوك طريق الخير، وتجنب الشرور والآثام، إن كان لذلك محل موجب، وإذا كان الآمر من أهل المعرفة بحكم ما يأمر به أو ينهى عنه حكمًا صحيحًا في شرع الله - الإسلام - وهذا الحديث الشريف يسري حكمه ليس على الجالسين على الطرقات فحسب، سواء أكانوا في مجالس خاصة أمام المحلات التجارية والصناعية وأمثالها أم المقاهي التي تخالط الطرق وتضايقها، وإنما يمتد هذا التوجيه النبوي إلى كل جماعة تلتقي في مكان عام يغشاه الناس سائرين أو في قضاء حوائجهم، كالنوادي الاجتماعية والرياضية التي ألفها الناس في عصرنا، فلنحفظ للطريق حقه، أي للسائرين في الطريق رجالاً ونساءً حقوقهم، فلا نشغل الطرقات ونزحمها بالجلوس والوقوف، كما يفعل الشبان اليوم، ونؤذي المارين باضطرارهم للسير في نهر الطريق، الأمر الذي يعرضهم للأخطار، وبهذا نحفظ للمجتمع الإنساني الإسلامي سمته المميزة: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1]

وبالله التوفيق

---

(١) الآية ٨٦ من سورة النساء.

من اجتماعيات الإسلام حق الطريق (٢)

والحفاظ على هذه الطرق نعمة عبء عام كذلك على كل الناس، وفي مقدمتهم لسلطات المسؤولة عن صيانتها، وتيسيرها وتنظيمها وتصفيتها وترتيب السير فيها، صيانة للأنفس والأموال.

وهذه الأعباء، وإن تولتها في عصرنا سلطات مسؤولة عنها وظيفياً من حيث إصلاحها ونظافتها وترتيب السير فيها، لكن الإسلام في آدابه واجتماعياته أناط بكل فرد هذا العبء.

ففي الحديث الذي رواه الشيخان وغيرهما، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأرفعها قول لا إله إلا الله».

وإماطة الأذى عن الطريق أي إزالته، والمراد بالأذى كل ما يؤذي المار، كالحجر والشوك والعظم والزجاج والنجاسات، وكافة العوائق التي تعوق السير في الطريق وتؤذي السائرين، سواء أكانوا راجلين أم راكبين، وأرفعها أي أعلاها قدراً ومنزلة عند الله تعالى.

وإذا كان لفظ هذا الحديث الشريف قد أمرنا بإزالة الأذى من الطرقات؛ فإنه يكون - بالتالي - قد نهى عن إلقاء الأذى في طرقات الناس وشوارعهم، ومن ثم فإنه يحرم أن تلقى المخلفات في الطريق، سواء أكانت مخلفات أطعمة أم أتربة أم حجارة أم زجاج أم خشب، ومقتضى هذا أن على الناس الحفاظ على نظافة ونظام الشوارع.

وهذا ما يقتضيه الذوق العام، وهو عنوان على الحضارة والرقي، وها نحن نرى أن الإسلام قد تعيًّا في تعاليمه الوصول إلى رقي الذوق وتحسين كل ما حول الإنسان في بيئته المنزل، والمسجد، والشارع....... إلخ.

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»، وفي رواية أخرى «مرّ رجل بغصن شجرة على ظهر الطريق، فقال والله لأنحين هذا عن طريق المسلمين، لا يؤذيهم، فأدخل الجنة»، وفي رواية لأبي داود «نزع رجل لم يعمل خيرًا قط غصن شوك عن الطريق، إمّا قال كان في شجرة فقطعه، وإما كان موضوعًا فأماطه عن الطريق، فشكر الله ذلك له، فأدخله الجنّة».

ومن جملة الأحاديث النبوية الواردة في آداب الطرقات والحفاظ على نظامها ونظافتها نستنبط فوائد منها

إن هذا العمل يدل على الإيمان الخالص لله تعالى باعتباره من شعب الإيمان وأنه يكسب حسنة ويثبت صدقة، وهو طريق إلى دخول الجنة وإلى النجاة من عذاب النار، ويجلب رضا الله تعالى، كما في الحديث الشريف السالف «فشكر الله ذلك له».

وإنه لمن حق الطريق في عصرنا - وقد تكاثرت السيارات وتنوعت وتزاحمت وتعددت مهامها - أن نطيع القوانين واللوائح التي وضعت لتنظيم السير والوقوف (قوانين ولوائح وتعليمات المرور) باعتبار أن في اتباعها إزالة الأذى من الطرقات، فلا تقع حوادث التصادم بين السيارات نتيجة السرعة غير العاقلة والتسابق، وسير المشاة في نهر الطريق، واختراق الإشارات المرورية، وشغل الأرصفة المخصصة

للمشاة بوضع السيارات والبضائع عليها أو الجلوس فيها، كل هذا وغيره من أذى الطريق الذي أمر الرسول - ﷺ - بإزالته وجعله شعبة من شعب الإيمان.

والحرص على نظافة الشارع ونظامه، وتقنين أحكام له تطبق على المخالفين، من المأمور به في الإسلام، وهو أمر موجه إلى الكافة. ومرخص بالعقاب عند مخالفته؛ فإن الله - سبحانه - قد أثاب وشكر ذلك الذي أزال غصن شوك من طريق المسلمين وأدخله الجنة، فمن وضع الأذى في الطريق أياً كان نوعه كان قد ارتكب وزراً وسيئة.

وإن حرص الإسلام في تشريعه على تنظيم وتنظيف الطرقات وحمايتها من كافة العوائق ومما يضر بالمارس ويعوق حركة السير، من باب الوقاية، ودرء المفاسد، التي تترتب على شغل الطرقات.

وإن علينا أن نحفظ للطريق حقه من النظام والنظافة؛ فهذا وجه ظاهر ومشرق للإسلام، تبدو آثاره حضارة بارزة تتحدث عن أثره وتأثيره في أتباعه المسلمين، وفي الناس أجمعين.

وفي حفظ حق الطريق تزيين له، إذ يظل نظيفاً منظماً، وتلك زينة وتنعم بنعمه في شوارعنا، كما نحرص عليه في مساكننا، وقد من الله علينا منة ونعمة تدعونا لأن نجمل كل ما حولنا مما يدخل في صفتنا على هذه الأرض.

فنرى القرآن الكريم يقول في سورة الصافات:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾[1]

(١) الآية ٦ من سورة الصافات.

وفي سورة فصلت

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[1]

وفي الحجر

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴾[2]

وفي سورة الأعراف

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[3]

وقبل هذه الآية في سورة الأعراف، الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد، فهلا يقتضي هذا أن نعمل على إعطاء الطرقات حقها من النظام والنظافة والزينة، التي أمرنا الله بها في ذاتنا وفي مساجدنا، والتي أنعم بها علينا في تزيين السماء، فقال (وزيناها للناظرين).

ألا فنحفظ للطريق حقه؛ فلا نتسابق بالسيارات، ولا نتزاحم معها، أو تزاحمنا، ونصون الطريق عن الصخب والضجيج، وإطلاق أبواق السيارات وغيرها من الأدوات التي تقلق الناس في الشوارع وفي البيوت، وتؤثر في مسامعهم ونفسياتهم، كل هذا يجمعه قول الرسول ﷺ «الإيمان بضع وستون - أو بضع وسبعون - شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله»، وبالله التوفيق

---

(١) الآية ١٢ من سورة فصلت

(٢) الآية ١٦ من سورة الحجر.

(٣) الآية ٣٢ من سورة الأعراف.

من اجتماعيات الإسلام حق الطريق (٣)

لا يزال الحديث متصلاً عن حق الطريق، ونلتقي مع حديث رسول الله ـ ﷺ ـ الذي رواه مسلم وأبوداود وغيرهما، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال «اتقوا اللاعنين»، قالوا وما اللاعنان يا رسول الله؟ قال «الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم».

وروى أبوداود وابن ماجه عن معاذ بن جبل، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال «اتقوا الملاعن الثلاث البرازَ في الموارِدِ وقارعةِ الطريقِ والظلِّ».

واللاعن في هذين الحديثين يراد به الأمر الجالب للّعن، والملاعن يراد بها المواضع التي تدعو الغير للعن صاحبها، و لتخلي يعني التبرز

هذان الحديثان قد جمعا الكثير من آداب المجتمع، وأرشدا إلى سبيل الوقاية من الأمراض، فضلاً عن الحفاظ على نظافة الطريق وموقع الظل وموارد الماء، وصونها جميعًا من التلوث بالقاذورات والنجاسات، مما يؤذي الناس في أجسادهم وأذواقهم.

ذلك لأن التبرز في الطريق العام، أو في الظل الذي يأوي إليه الناس، أو في موارد المياه (الأنهار والترع والآبار) يهدر كرامة الفرد، ويحط من شأن مجتمعه، ومظهر من المظاهر السيئة، التي تدل على تأخر المجتمع، ومن يفعل هذا إنما يبرز أسوأ ما فيه للناس، وتحت أبصارهم فاستدعى بذلك لعنهم إياه، أي الدعاء عليه باللعنة، وهو ظالم وهم مظلومون ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب

ثم إن الناس يسلكون الطرقات في غدوهم ورواحهم، ويتفيئون الظل مقيلا وموئلا، فكيف يستبيح إنسان أن يلوث الطريق والظل الذي يحتاجه المجتمع، ويترك

لهم فضلاته برائحتها لكريهة، ومظهرها لذي تتأذى به الأبصار و مصائر وتتو فد عليه لحشر ت و لهو م، لاسيم لذباب الذي تستهويه هذه لقذورات، يوزعها على كل مكان يهبط إليه، من إنسان أو طعام أو شر ب؟ والذباب منذ خلقه له بسلوكه وعاداته وتلونه ونشأته في مو قع الأقذ ر، أد ة خطر على الإنسان، وهي كما قيل (كلما ذُبَّ آب). أي أنها كلما طوردت رجعت إلى حيث طُردت

فكيف يترخص إنسان أن يكون فعله هذا مصدراً لتلويث الطرق وموارد لمياه وتحت لأشجار التي يستظل بها السائرون، فينتقل إليهم هذا التلوث في أجسادهم أو ملابسهم، وينجس الموقع والمورد، وما عبرت عنه الأحاديث لشريفة قد ترجمه لعلم إلى آفات وميكروبات مسببة لأمراض عاتية.

ذلك لأن هذه الأحاديث استوجبت اللعن أي الطرد من رحمة لله، وهذا هدي نبوي شريف يحثنا على ألا نلوث الطرق بالفضلات الآدمية، وكذلك الظل وموارد لماء ويؤكد هذ الاتجاه ما رو ه مسلم وغيره أن النبي ﷺ «نهى أن يبال في الماء الراكد».

وما رواه الطبراني ـ في لأوسط ـ بإسناد جيد، أن النبي ﷺ «نهى أن يبال في الماء الجاري».

إن هذ ن لحديثان الشريفان يدلان بجلاء على خطر لتبول في لمياه، سواء الراكدة منها والجارية وهو ما كشف العلم ضرره وتسببه في الإصابة بمرض البلهارسيا بنو عها، وبذلك تفسد هذه المياه، فلا تصلح للاستعمال في الشرب و لوضوء و لاستحمام، أو غسل الخضرو ت والملابس، وتصبح لمياه بالتبول فيها مجلبة للأمر ض لمتنوعة لتي تنشأ عن تلوث موارد المياه، وبذلك ندرك حرص لإسلام في تشريعه على لوقاية والحفاظ على صحة لأبد ن حرصه على صحة الدين.

ومن باب هذه الوقاية - التي اشتقت منها الكلمة السائرة «الوقاية خير من العلاج» - كانت تعاليم رسول الله - ﷺ - ووصاياه في مقدمة القواعد الصحية التي يتعياها الناس الذين بلغوا شأوًا في الحضارة، والتي علينا أن نأخذها بها، لأنها من الإسلام

روى البيهقي وغيره، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه، أن رسول الله - ﷺ - قال «من أحب أن يكثر الله خير بيته فليتوضأ إذا حضر غداؤه وإذا رفع».

قال الحافظ المنذري المراد بالوضوء غسل اليدين، وهو الفعل المقصود تحقيقه من الوضوء في هذا المقام.

وروى أبوداود والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه «من نام وفي يده غمْر ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه» والمقصود من كلمة الغمر، في الحديث هو الأثر والرائحة من أثر اللحم والطعام، وهذا تأكيد لضرورة غسل اليدين بعد تناول الطعام وتنظيف الفم.

ومن أمثلة «الوقاية خير من العلاج» في تشريع الإسلام قول رسول الله - ﷺ - «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء لم يغط ولا سقاء لم يوك، إلا وقع فيه من ذلك الوباء».

هذه مثل من اقوال رسول الله - ﷺ - توصي بضرورة اتباع طرق الوقاية من التلوث والتحوط من مسببات الأمراض، فتحث على غسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده، وقبل النوم، كما تحث على ضرورة حفظ الأطعمة وغيرها مما يستعمل غذاء أو دواء أو شرابًا، في أواني معلقة ولا تترك مكشوفة معرضة للتلوث

إنه الحق إن من قواعد الإسلام الثابتة {لا ضرر ولا ضرار}، ومن ثم كان حقًا على الأمة أن ترعى الله فيما أمر به، وأن تترك ما نهى الله ورسوله عنه، منعًا

للضرر بالنفس وبالغير، وحفاظاً على الأنفس والأموال، ونشراً للحضارة والنضارة، وحتى لا تتعرض للأوبئة والخسارة.

وهذا هو أمر الله ـ سبحانه ـ في سورة البقرة، بالابتعاد عن مواطن الهلاك ومسبباته:

﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾[1]

وفي سورة النساء

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾[2]

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٢٩ من سورة النساء.

من وسائل بناء الشخصية في الإسلام

روى البخاري بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: لعن رسول الله ـ ﷺ ـ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال.

إن الإسلام قد كرم الإنسان بالعقل، وفاضل بين الرجل والمرأة في التكوين الجسدي فاختص كلا منهما بميزات، وعلامات يعرف بها ويوصف.

ولقد كان المجتمع الإسلامي السليم حفيظًا على أن تظل للرجل خصائصه وصفاته ومهامه، وأن تحتفظ المرأة بما خصها الله من صفات ومهام وخصائص، حتى يظل هذا المجتمع قويًا متماسكًا، يعرف كل من الرجل والمرأة موقعه فيه دون أن تزول الفروق بينهما في المظهر والمخبر.

ومن هنا كان هذا الوعيد باللعن والطرد من رحمة الله وعونه ورضوانه للرجال المتشبهين بالنساء، وللمتشبهات من النساء بالرجال.

بل إن في بعض روايات هذا الحديث «لعن رسول الله ـ ﷺ ـ المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء»، أي أولئك الرجال الذين يتشبهون بالنساء في كلماتهن وحركاتهن وملابسهن، وهؤلاء اللاتي يتخلين عن خلق الله إلى التظاهر بمظاهر الرجال في كلامهم وحركاتهم ولباسهم.

وفي هذا الحديث الشريف دعوة صريحة إلى ضرورة الحفاظ على الشخصية المسلمة للرجل وللمرأة على حد سواء، فلا يجوز للرجل أن يتزيا بزي اختصت به المرأة، كما أنه ليس لها أن تشارك الرجال بالظهور بمظهرهم في الزي والحركة والكلام.

وليس من الإسلام ما نشاهده الآن على بعض الشباب من وضع السلاسل الذهبية حول العنق مدلاة على صدر مكشوف، ومن ارتداء بعض الفتيات (البنطلون) الضيق المحدد لملامح أجسادهن، وارتداء الفتيين والفتيات القمصان المشتركة التي لا يتمايز بها هذا عن هذه.

بل وقد كشفت الفتيات عن سواعدهن متشبهات بالفتيان فأثرن الفتنة بهذا الصنيع، مخالفات بذلك أمر الله في القرآن

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾[1]

ففي هذه الآية الكريمة احتفاظ بمرأة بزيها الساتر السابغ، الذي يحفظ لها كرامتها، ويقيها فضول النظر المحرم، ويضعها في نطاق العفة، فلا يجرؤ أحد أن يؤذيها بنظرة فاجرة، أو بكلمة داعرة، ذلك قول الله

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ﴾[2]

إن هذه المشاهد التي نراها اليوم في شوارعنا ومجتمعاتنا، بل وجامعاتنا دخيلة على المجتمعات الإسلامية، وفدت إلينا من قوم غرقوا في العبث بالقيم والفضائل، وتعروا عن كل فضل وعفة، وانحرفوا عن جادة الفطرة الإنسانية السوية التي فطر الله الناس عليها وانحرفوا بالحرية إلى الفوضى.

---

(١) الآية ٥٩ من سورة الأحزاب.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة الأحزاب.

وكانت نتائج هذا على الإنسانية في هذا العصر وخيمة، وثمرته مرة. كانت هذه الأمراض وتلك الأوبئة التي تجتاح الإنسان في جسمه وخُلُقه، كان هذا التيه الذي يتخبط فيه الشباب اليوم فكرًا وخلقًا، دون التزام بالخلق والدين.

إن هذا الحديث الشريف يحذرنا من الانحراف بشخصية الإنسان رجلاً أو امرأة، بل يحثنا على أن تكون هذه الشخصية متوازنة، سوية، متكاملة، لا يطغى فيها جانب على آخر، ولا تذوب أو تنهار، بل تحافظ على مقوماتها، وتحتفظ بسماتها، تقاوم الضلالات، وتسوس نفسها بما سسها به الإسلام، فتعطي الجسم حقه من العناية، دون إخلال بفطرة الله التي فطر الناس عليها.

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾[1]

وللمظهر ما يستوجبه من الرعاية دون أن تنتمي المرأة بزيها إلى غير أنوثتها، أو يتشبه الرجل في زيه بالمرأة، متجاوزًا خلق الله إياه رجلاً سويًا.

إن على المسلم، وعلى المسلمة، بحكم الإسلام معالم لابد من الاحتفاظ بها، وإن ما يفعله غير المسلمين في أنفسهم لا يصلح لنا ما دام غير متفق مع أحكام دين الله الإسلام.

ذلك ما يبدو واضحًا قاطعًا في الحديث الذي رواه أبو داود بإسناد صحيح، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

«لعن رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل».

فلنعد إلى الإسلام، ولنستمع إلى وصاياه، ولنصلح مجتمعنا بآدابه. ولبكن كل فرد رقيبًا على نفسه، مستجيبًا لربه فهو حسبه، وكفى به حسيبًا.

---

(١) الآية ٥ من سورة سبأ.

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

هذه الصلاة، عبادةٌ مفروضة، في ركعات معدودة، وسجدات محدودة، هي في الواقع بمقدماتها وركوعها وقيامها وتلاوة القرآن فيها، صلة بالله، يخاطب المصلي ربه بآياته، ويذكره في ركوعه بأعظم ذكر - سبحان ربي العظيم - وفي سجوده بأعلى فكر - سبحان ربي الأعلى -، لقد وصف رسول الله - ﷺ - اطمئنانه بالصلاة حين قال:

«وجعلت قرة عيني في الصلاة».

هذه الصلاة انقطاع لحظات عن حركة الحياة، ووقوف بين يدي الله - سبحانه -، يؤدي المؤمن فيها حق الشكر، وحسن الذكر، يناجي ربه مخلصاً، متطهراً من أدران الحياة، وشوائب الأعمال.

إلى هذا يرشدنا رسول الله - ﷺ - في تشبيه تقريبي للصلاة «لو أن بباب أحدكم نهراً يغتسل فيه خمس مرات في اليوم والليلة، أكان يبقى على جسده من درن؟» قالوا: لا.. يا رسول الله، قال: «كذلك الصلاة».

تعالوا نتابع خطواتها - تلك الفريضة المطهرة، الناهية عن الفحشاء والمنكر

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى
الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ
وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ
فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾ ﴾[1]

بهذا: يعدنا الله ـ سبحانه ـ للصلاة، لأنها وقوف بين يديه، ومناجاة له، فلابد لهذا الموقف ـ موقف المؤمن مع الله ـ من أن يكون طاهراً متطهراً

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ ﴾[2]

فإذا تطهر المسلم مستعداً للصلاة ـ انجذب إلى خالقه، واشتعل قلبه بذكره، وانصرف عن الدنيا وشواغلها ساعة الصلاة. فكان بينه وبينها حجاب، أقامه بدخوله الصلاة بقوله «الله أكبر» نعم الله أكبر من الدنيا لأنه خالقها، وأكبر من الإنسان لأنه ـ سبحانه ـ خلق فسوى، وقدر فهدى، فكيف يقف المسلم بين يديه مشغولاً بغيره، منصرفًا بفكره؟

نعم الله أكبر، مفتاح بين الله وعبده، ذكر يسمعه الله، ويثيب عبده، قوة للروح والقلب، وإعلان دائم للإنسان أنه من خلق الله وإلى الله، فلا تستهويه الدنيا بما فيها من رغائب وعجائب، ولا تبطره النعمة فتنسيه المنعم

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ ﴾[3]

وبعد هذا الإعداد بالطهارة وحسن الزينة: نقف ـ بين يدي الله ـ متفرعين ضارعين في أوقات محدودة، وفرائض معدودة، نقرأ القرآن، ونركع ونسجد،

---

(١) الآية ٦ من سورة المائدة.

(٢) الآيتان ٤ و٥ من سورة المدثر.

(٣) الآيات ٦ ـ ٨ من سورة العلق.

ونسبح لله كثيراً، ونصلي على أنبيائه ورسله، وعلى خاتمهم محمد ـ صلى الله عليهم جميعاً وسلم ـ نشهد لله بالوحدانية، ولمحمد بالرسالة، نلتمس رضا الله، في صفوف منتظمة تتبع إمامها، تتحرك بحركته، وتنطق بكلماته، تصاحبه تتبعه، ولا تسابقه أو تسبقه

هكذا نكون خمس مرات مجتمعين، كلنا يرقب الله، ويعتقد أنه

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝ ﴾[1]

وأنه

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۝ ﴾[2]

بهذا يكون الحضور في الصلاة، وبهذا تكون الصلاة صالحة مصلحة، ناهية عن الفحشاء والمنكر.

إن كيف يفكر المسلم في عصيان الله، واقتراف لإثم أو ترك الأمر، وهو قادم من مناجاة ربه مفضياً بين يديه بذات نفسه، وبعد هذا سيعود إلى نفس الموقف في فريضة أقرب، خمس فرائض تطهر النفس والجسد فما يبقى في واحد منهما من درن. هذه وظيفة الصلاة كما حددها القرآن

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝ ﴾[3]

(١) لآية ١٩ من سورة غافر.
(٢) الاية ٨ من سورة طه.
(٣) الآية ٤٥ من العنكبوت.

ذلك لأن الصلاة والذكر يحملان على دوام المراقبة لله، ومحاسبة النفس، ومباعدة الهوى والشيطان، فكل مصل - بحق - يحاسب نفسه في الأقوال والخواطر والأفعال.

هي الصلاة سبيل الوصول إلى الله، وما الوصول إلى الله إلا استقامة الطريق

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[1] ومن قوله تعالى

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[2]

هي الصلاة تدعونا للتواضع، فلا تزاحم، ولا تضارب، ولا تخطي للرقاب، والمكان لمن سبق، لا لمن استعلى أو لذوي الجاه، أو لأصحاب الأموال

هي الصلاة، مساواة تامة، فالغني والفقير متجاوران بالقدم والجانب يركعان ويسجدان لإله واحد، ويتلوان قرآنًا واحدًا، أو يسمعانه من إمامهم الواحد، لا يتأذى ذلك من هذا ولا يتعالى عليه.

هي الصلاة التي فرضها الله على المسلم في كل حال، ففي حالة الإقامة والسفر الصلاة، وفي السلم الصلاة، وفي الحرب الصلاة، وفي الصحة الصلاة، وفي المرض الصلاة قائمًا وقاعدًا، وعلى جنبه، وبالإيماء - تيسيرًا من الله وفضلاً وتقريبًا لعباد الله من ربهم، يناجونه في عسرهم، كما يناجونه في يسرهم

(١) الآية ١١٢ من سورة هود.
(٢) الآية ١٠٨ من سورة يوسف

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾(١)

إنها دعوة الأنبياء

﴿ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ ﴾(٢)

ووصية الله إلى الأنبياء

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ﴾(٣)

وهي مسؤولية كل مؤمنة ومؤمن عن نفسه وعمن هو مسؤول عنهم

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ ﴾(٤)

نعم هي الصلاة طريقنا إلى النظافة والنظام، والصف الواحد والكلمة الواحدة، والقبلة الواحدة، والهدف الواحد.

نعم هي الصلاة أدعو المسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات إلى أدائها طاعةً لله بإقامتها، فبالصلاة تنظم أمورنا كانتظام صفوفنا فيها وتتحد قلوبنا؛ لأنها في لصلاة متوجهة لرب واحد، وقبلة واحدة، نتلو آيات واحدة، نستعين بها عسى الله أن يجمع شمل الأمة ويوحد كلمة قادتها ويذهب ما في الصدور، فقد

(١) الآية ٤٥ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٤٠ من سورة إبراهيم.
(٣) الآية ٣١ من سورة مريم.
(٤) الآية ٥٥ من سورة مريم.

تخصفتنا الأمم من حولنا، واستهان بنا من كانوا دوننا، فكانت الحروب غير المتكافئة، لا لقلة عدد أو مال، ولكن لتفرق الكلمة وضياع الهيبة.

نعم هي الصلاة.. التي كان يفزع إليها رسول الله ـ ﷺ ـ في الكرب والحرب، فلنجتمع في الصلاة، ولنحافظ عليها.

﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1]

ولندع الله أن يؤلف بين قلوب الأمة ـ شعوبًا وحكومات، وملوكًا ورؤساء ـ عسى الله أن يأتي بالفتح أو بأمر من عنده فتقوى عزائمنا، ويرتد من استهانوا بنا مع كثرتنا.

والله غالبٌ على أمره، وهو ولينا ونعم النصير.

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾[2]

(١) الآية ١٣٢ من سورة طه.
(٢) الآية ١٠٣ من سورة النساء.

واجب الأزهر في نشر الثقافة الإسلامية الصحيحة واللغة العربية في ربوع العالم

كان الأزهر وما يزال في موضع الصدارة بين دور العلم في العالم الإسلامي، تدرس فيه كافة العلوم والمعارف في القرون المتعاقبة التي مرت به، وهو قائم شاهق بأروقته ومآذنه وقبابه ينير ولا يثير، يحفظ ولا ينسى، يجد ويجتهد في صنع أهل العلم المتميزين في صفوفه وأنواعه. فعلوم الدين بفروعها من الفقه وأصوله، والتفسير للقرآن الكريم وسائر العلوم المتنوعة، والحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ وسيرته العظيمة، وعلوم اللغة العربية بأنواعها من نحو وصرف وعلوم البلاغة وفقه اللغة وغيرها من الآداب والتاريخ والسير، كما كانت تدرس فيه الرياضيات والعلوم والحساب والجبر والهندسة والفلك والميقات والصيغة والكيمياء فضلاً عن علم المنطق والجغرافيا والفلسفة والطب والصيدلة.

ولقد ألف علماؤه وخريجوه في هذه العلوم المتنوعة، فأجادوا وأفادوا، ولم تكن مهمة علماء الأزهر الشريف منحصرةً في إلقاء الدرس على الطلاب فيه فحسب، بل فكروا في الجماهير الإسلامية التي لم تحظ بالجلوس في حلقات الدراسة، فأرسلوا وفوده إلى شتى بقاع العالم الإسلامي وفي ربوعه، يتصلون اتصالاً مباشراً بالشعوب الإسلامية، عامةً، وأقاليم مصر بوجهٍ خاص في مساجدهم، وفي أفراحهم ومآتمهم، وأسواقهم، ونواديهم، مبشرين ومنذرين وناصحين، عاملين على إزالة الخلف والخلاف والثقافة بين الناس، ويجمعون المتخاصمين صلحًا ووفاقا، ويعملون في المدارس والجامعات العربية والإسلامية، حملاً لتبعة الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونشر وإشاعة الثقافة الإسلامية الصحيحة بين

جماهير الأمة الإسلامية في عرض شيق، وصورة صحية، تقوية للوعي الديني والخلقي والاجتماعي، وبعثًا للانتماء الوطني و لإسلامي في نفوس الشعوب الإسلامية، وتثقيفها بالثقافة لحرة، التي لا تخضع لقيود المعاهد و لمدارس، ودراسة المشكلات الاجتماعية بين الأفراد والأسر و لجماعات، والسعي إلى حلها في نطاق لإسلام وعقيدته وشريعته، مع لإسهام الإيجابي في الدعوة إلى العمل والإنتاج، وإرساء قواعد العدل والتعاون على البر و لتقوى.

وها هو الأزهر يواصل رسالته، ويساعد على لتوسع في أدائه سرعة المو صلات والاتصالات في هذا العصر المتوثب في كل شيء، فهو يرسل علماءه بالآلاف إلى الشعوب الإسلامية معلمين ودعاة دون منٍّ ولا أذى.. ينشرون صحيح العلوم والمعارف ووسطية الإسلام، ويعلمون اللغة العربية لغة القرآن

ثم ها هم طلاب العلم الوافدون إليه من كل صوب وحدب في العالم الإسلامي يقيمون للتعليم، ويعودون إلى بلادهم، رافعين راية لإسلام، وشارحين تعاليمه.

وها هم خريجو الأزهر يقدمون علومه في الجامعات المصرية والعربية و لإسلامية، حيث يقومون على تدريس علوم الشريعة الإسلامية، وفي المدارس المصرية آلاف من خريجي الأزهر، يعلمون النشء ويشاركون في تربية الأجيال، ومنهم من يقيم العدل بالعمل في القضاء والمناصب لإدارية في مصر وغيرها من الدول لعربية و لإسلامية ومنهم من يقوم على تحقيق كتب التراث ونشرها، وهم بذلك يرفعون علم الفكر الإسلامي، ويعلون منزلته، ثم هؤلاء الذين يتخرجون من الطلاب الوافدين، لهم دور كبير في خدمة المكتبة الإسلامية والعربية حيث ينقلونها إلى لغات شعوبهم؛ ذلك لأن الفكر العربي والإسلامي سبّاق، وهو لهذ مرجع كل الباحثين في هذه الدراسات

وليس هذا شأن الطلاب المسلمين الوافدين بحسب، بل إن كثيراً من الراغبين في الوقوف على الثروة العلمية العربية والإسلامية من غير المسلمين، لا بد لهم من تعلم اللغة العربية والتعمق فيها، وهم يجدون في إنتاج الأزهر ما يغني ويعين

ومجلة الأزهر التي تصدر في غرة كل شهر قمري، تحمل رحيقًا سائغًا شرابه، صفيًا من صنوف الثقافات والمعارف الإسلامية، وتصل الماضي بالحاضر مع ارتباط آفاق المستقبل، وملحقها الشهري يطوف بالقارئ آفاقًا متنوعة من الفتوى والتاريخ والأدب.

وبعد....

فلقد تبوأ الأزهر - منذ كان وللآن - مكانةً عاليةً في الدراسات المتنوعة الإسلامية والعربية والعلوم والمعارف التي استحدثت على مرّ القرون العشرة التي مضت من حياته المديدة - إن شاء الله - فكان - بحقٍّ - رائدًا في المجالات العديدة، وصار الناس في العالم الإسلامي يرسلون علماءه، يأخذون عنهم العلوم والفتيا، لأنه يعتبر - بحق وصدق - مُعبّرًا عن وسطية الإسلام وعدله، يعمل بحكمة وروية، لبيان حكم الإسلام في كل جديد من الحادثات والصنائع، محققًا مقولة إن شريعة الإسلام صالحةٌ لكل زمانٍ ومكان؛ لأنها من عند الله

﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1]

(١) الآية ٥٠ من سورة المائدة.

دور الأزهر في تحقيق التآلف
والتضامن بين الشعوب الإسلامية

لقد عيش لأزهر التشريف - منذ أن كان - المسمين في أفراحهم وأتراحهم، وحفظ لهم كنوز لعلم في رحابه وبين جدران أروقته تثقف الفحول من أبناء المسلمين من شتى بقاع أرض الإسلام.

لقد عايش الأزهر الشريف المسلمين فكرياً وعقائدياً وسياسياً، فكان لهم - على اختلاف مواقعهم على أرض الله وتنوع لغاتهم وألوانهم - سنداً ومدداً، عندما تعرضت بعض البلاد للغزو العسكري والفكري، وعندما انتكست الثقافة الإسلامية في بغداد على يد التتار، وعندما انحسر الحكم الإسلامي عن أسبانيا، ووقع العدوان على المساجد والمدارس، والمسجد الأقصى والقدس والعدوان الصليبي كان الأزهر الشريف في كل هذه المحن محط آمال علماء الإسلام يفدون إليه فتشتد به عزائمهم، وهو بهم ومعهم يقاوم التيارات المنحرفة، ويصل الثقافة الإسلامية بتاريخها المتألق، وكان ومايزال المنارة المنيرة في الظلام الذي حيم في فترات متعاقبة على الأمة الإسلامية، يشع ضوءه الفكري فيسري إلى كل أنحاء بلاد الإسلام رافعاً لواء الحق، يجمع ولا يفرق، ويصون الود والعهد ولا يبدد

وإذا كانت المساجد الإسلامية - بوجه عام - قد قامت بأدوار هامة في تاريخ الأمة الإسلامية فإن الجامع الأزهر الشريف - كان وما يزال - يؤدي أدواراً عملية خالدة.

لقد بعث بجهده - ونشر أشعة العلم والعرفان في أقطار العالم الإسلامي - حفظ اللغة العربية - والثقافة الإسلامية وبماها - وما يزال - لاسيما في العصور التي وقعت بلاد المسلمين فريسة الاستعمار الغربي.

وهو مع هذا يطارد الإلحاد والانحرافات والمذاهب الهدامة ودعاة الفوضى والانحلال.

إنه يطارد الشكوك والحيرة، وهو بهذا ينهض الشقاء في العالم الإنساني، إذ لا شقاء أبين من شقاء الحيرة والشك حين تضطرب بهما النفوس.

وها هو الأزهر لم يكتف ـ منذ أن كان وللآن ـ بأن يؤدي دوره نحو الإسلام والمسلمين في موقعه فحسب، بل إنه فتح بابه ورحابه وأروقته لأبناء المسلمين يفدون إليه من جميع الشعوب ينهلون من العلوم النافعة للدين وللدنيا، ويعودون إلى أقوامهم مبشرين ومنذرين، يصححون العقيدة، وينشرون الشريعة، وقد تحلوا بأخلاق الإسلام التي عرفوها خيراً كثيراً، فأخرج بجهده المشكور بشراً سوياً ـ بالإسلام ـ من ظلمة إلى نور استنقذهم من شر مستطير إلى خير كثير وفير، والتقى في حلقات الدرس به الوافدون، فتآلفوا وتحابوا ـ وصاروا بحمد الله ـ إخواناً، وما يزال الأزهر الشريف يستقبل الآلاف من رواد العلم وطلابه.

وليس هذا فحسب دور الأزهر في تحقيق التآلف والتضامن بين شعوب الأمة الإسلامية، ولكنه مع هذا يبعث علماءه إلى هذه الشعوب في مواقعها، يعايشون إخوانهم، وينشرون بينهم عقيدة الإسلام السمحة، ويبثون نصائحهم وإرشاداتهم، وينقلون إليهم من الجامع الأزهر الشريف مائدة القرآن الكريم، والعلوم التي انبثقت من آياته، باعتبار أن الأزهر هو المستقر الذي أوت إليه علوم الدين واللغة بل وعلوم الدنيا.

إن الأزهر الشريف لم تعد بمعاهده وكليات جامعته في مصر وحدها، إنما امتدت معاهده وكلياته إلى خارج حدود مصر، في الشرق الأوسط، وفي غربه، وفي شماله وجنوبه، فهو بمثابة العروة الوثقى التي يلتقي معها وبها كل المسلمين،

مآثره من مآثر الروح الإسلامية التي تأبى أن تنطفىء أنوارها أو تنطوي صحائفها.

وعلم الأزهر الشريف فسيح مترام لا تحده الحدود والقيود والسدود، إنه علم القلوب التي تسعى بالجهد الإسلامي الدؤوب في كل درب وسبيل في العلوم والفنون المتنوعة وأساليب الحكم، ومناهج الشرع، والدعوة إلى الخير.

إنه يعمل ويجد ليحقق للمسلمين أملاً دعاهم الله إلى أن يعتنقوه

﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1]

(١) من الآية ٢ من سورة المائدة

كيفية مشاركة الأزهر في صياغة

نظام إنساني عالمي

كيف ترون مشاركة الأزهر الشريف في صياغة نظام إنساني عالمي؟

هذا الإنسان صنع الله الذي أتقن كل شيء، خلقه فسواه، قامة مديدة مستقيمة، في هيئة سوية انفرد بها عما سواه من خلق الله ومنحه عقلاً به يعرف الرشد من الغي

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝ ﴾[1]

وقال تعالى أيضاً

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ ﴾[2]

هذا الإنسان الذي إذا أكرمه الله وكرمه، انتشى ونسي الرب الذي أكرمه ونعمه، وإذا ابتلاه اشتكى وبكى، ولم يذكر الله جحوداً للنعمة وعصياناً - سبحانه -

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝ ﴾[3]

(١) الآيات ٨ - ١٠ من سورة البلد.
(٢) الآيات من ٧ - ١٠ من سورة الشمس.
(٣) الآيتان ١٥ و١٦ من سورة الفجر

هذا الإنسان أرسل الله إليه الرسل المتعاقبين

﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝ ﴾[1]

وكان الإسلام الدين الخاتم من عند الله. كما كان رسوله سيدنا محمد ـ ﷺ ـ خاتم النبيين إلى الناس كافة بالهدى ودين الحق. وهي كتابه القرآن تذكرة للناس، ودعوتهم إلى الأخوة الإنسانية، وعودة بهم إلى الأب الأعلى آدم، والأم العليا حواء.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ ﴾[2]

وفي قوله تعالى أيضاً

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝ ﴾[3]

وهكذا نرى أن الإسلام اتجه في دعوته إلى استثارة الحس والمعاني الإنسانية لدى الناس جميعاً ليتعارفوا ويتآلفوا، ويكونوا المجتمع الإنساني الذي يحقق أهدافه وغاياته، التي خلق من أجلها، وجماعها إعمار هذا الكون بالعبادة لله وحده، وبالعلم والعمل المثمر.

(١) الآية ٦ من سورة الزخرف.
(٢) الآية ١ من سورة النساء.
(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات.

وإذ كان الأزهر الشريف قد حمل لواء الإسلام وشرف بنشر علوم القرآن والسنة الشريفة، فضلاً عن الحفاظ عليهما في الصدور علمًا وعملاً، فضلاً عن الحفظ المسطور، إذا كان هذا؛ فهو ـ ولا شك ـ مشارك في العلاقات الإنسانية لأنه يحمل دعوة الإسلام الذي تحدث كتابه القرآن عن الإنسان بأبلغ وأجمل ما يكون الحديث والبلاغ.

والأزهر الشريف من أكثر من عشرة قرون من الزمان يمثل الإسلام في كل رأي يبديه، والقرآن يتحدث به ويبلغه الأزهر إلى الناس كافة، بسلم وسلام في كل شيء وكل حال، ألم يقل القرآن

﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[1]

ألم يقل القرآن في السلام الديني:

﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[2]

ليس الآن فحسب، بل منذ كانت رسالة الإسلام، ومنذ كان الأزهر، وما يزال في منهج الأزهر وخطته إبراز دعوة الإسلام السلام، والمؤاخاة واحترام الرأي الآخر، والأزهر يشارك في كل عمل جمعي لخير الإنسانية، وكان صوته ورأيه في

(١) من الآية ٨٣ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.

مؤتمر الأديان ببروكسل عام ١٩٣٦، وفي باريس عام ١٩٣٩، التزامًا بمنطق الإسلام، وما يزل الأزهر وعلماؤه في كل مكان يلتزمون بمنطق الإسلام في مواجهة الجديد من الأحداث، وبقناعة تامة لم تختلف كلمة الأزهر اليوم عنها بالأمس؛ لأن المصدر واحد، هو القرآن وسنة رسول الله - ﷺ - أليس في القرآن قول الله - سبحانه -

﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ ﴾[1]

هذا هو الإسلام، وهذا الذي يجري عمل الأزهر الشريف في نطاقه؛ إنه يواجه الأحداث بمنطق القرآن، لم يسلك طريقًا أو طرقًا معوجة ولم يمار بالباطل؛ لأنه يعرف أن الشر قضيةٌ خاسرة، ولم يُكره أحدًا على فكر، وإنما يعرض على الناس الفكر الرشيد الخالص لله لصالح الإنسانية عامة والمسلمين خاصة.

إن الأزهر الشريف يرحب بنظام إنساني تتزامل فيه ديانات السماء، لإصلاح الحياة الإنسانية، وتبرئتها من الإباحية المطلقة، ومن الانتهازية الملفقة، نظام يحافظ على ما بقي في النفوس من هيبة واحترام للدين، ودرء الأخطار التي تحيط بالإنسانية بقصد استظهار حيوانية الإنسان وتغليبها على إنسانيته، والبعد عن تنمية الشعور الديني بالأحقاد والضغائن، إذ ذلك يؤدي إلى إشعال البغضاء بين بني الإنسان، وازدياد الفساد في الأرض.

---

(١) الآية ٨ من سورة الممتحنة.

إن الأزهر يبث على لسان علمائه إشاعة المحبة والمودة بين بني الإنسان جميعًا، دون تفرقة بسبب الدين أو اللون أو اللغة أو الفقر أو الغنى.

إن كثيرًا من جوانب الحياة إنساني، تشترك فيه الأديان السماوية جميعًا والأزهر الشريف يدعو إلى التقاء الناس جميعًا على أساس

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[1]

فيحتفظ كل فريق بدينه العقدي، ولنترك العقل والمنطق يعملان دون إكراه أو إغراء

إن الإسلام الذي يحميه الأزهر ويعمل به قد حذر من التعرض لمخالفيه ما داموا مسالمين، لم يأذن بقتال إلا في نطاق محدد ضيق بنص القرآن الذي يقول

إن الأزهر مشاركٌ بالفعل في الدعوة إلى السلام الاجتماعي عامة، والسلام بين الأديان خاصة، ولكن الوليد مايزال في دور التكوين، ولن يكون الإجهاض إلا من قبل من لم يؤمنوا بحقوق الإنسان وأهمها السلام

مع الله، ومع النفس، ومع الناس.

(١) من الآية ٢ من سورة المائدة.

حوار الثقافات العالمية ودور الأزهر فيه

وكيف يكون فعالا؟

لا يجادل أحد في أن حركة الفكر والثقافات الإنسانية ودورانها على جنبات هذه الأرض أمر واقع منذ أن كان بنو الإنسان شعوباً وقبائل يتعارفون باللغات المنطوقة والصور المرسومة أو المحفورة، يتناقلون المعارف والعلوم والصناعات ويتصادمون، في الفكر وفي ميدان الحرب. وكل ذلك وأولئك يستتبع الاختلاف في التخاطب. و لتعرف على الأسماء والمسميات والمصطلحات والثقافات، فهو حوار عالمي دائم بالمقال وبالفعال يصل الإنسان بأخيه الإنسان صلة مباشرة بالمواجهة وبالمواصلة وبالانتقال إلى طلب العلم والمعرفة والحرف

وها نحن إذا راجعنا تاريخ الحركة الثقافية العالمية سنجدها تلاقت وتلاقت بين الشعوب والقارات منذ القدم؛ فالثقافة اليونانية والرومانية والفارسية ثم الثقافة الإسلامية التي التقت مع هذه الثقافات وتبادلت معها علومها ومعارفها ولغاتها بعد أن اندمج كثير من شعوبها مع المسلمين؛ إما مواطنين يزاولون علومهم ومعارفهم ونشاطاتهم الحياتية في أمن وحرية، وإما أولئك الذين تعرفوا على الإسلام ديناً قويماً وبعقيدته وشريعته وآدابه وأخلاقه وسلوكياته. وحدبه على تنمية العلوم والمعارف والفنون المتنوعة، ترقية لأذواق الشعوب التي انتمت إليها وصارت عضواً في دولته واندمجت بتراثها الفكري والثقافي حتى التأمت وتواءمت مع الفكر الإسلامي وثقافته.

وجاء دور الأزهر الشريف منذ انفتحت أبوابه للصلوات ولمجالس العلم وحوار العلماء ليجمع دور المسلمين والإسلام في حوار الثقافات عالمياً. فيتخذ لذلك من

الوسائل ودومها وقدرها على التفاعل مع كل تلك الثقافات، وذلك حتى يبقى خبتها ومستقي خبرها الذي يعن على سقنة لمعرف لعامة لمؤثرة في توفر سل الحياة الكريمه للأمة لإسلامية. فكنت أروقه الأزهر الشريف موئلاً للطلاب من كافة الشعوب في العالم، ينصهر بحيماع علومهم ومعارفهم وعاداتهم وأحلامهم، وتفاعل حتى سرر نمطا ثقافياً مجبوا بالصدق والحق ينسم بسمات الإسلام في السلام ولوداعة والحمية الحقه لإرساء دساتير لحياة بني الإنسان في نقاء وصفاء توجه إلى احترام حقوق الإنسان

كل إنسان، لا فضل لعربي على غيره ولا لأبيض على أحمر أو أسود، كلهم أخوه في الإنسانية تم الإسلام وأي أثر فعل من اللقاءات والمحاورة في حلقات لدرس، وفي التعيش في الأروقة. حتى إذا ما أتم الطلاب علومهم وتأهلوا بأنواع لثقافات والمعرف، عادو إلى شعوبهم مبشرين ومنذرين ينقلون إلى تلك الشعوب ما حصلوا من المعارف.

ووسيلة أخرى لا تقل فعالية وقوة عن سابقتها هي إيفاد علمائه إلى شعوب الأرض ينشرون العلم والثقافة والمعارف المنتقاة، التي هي خلاصة مستخصة من كل لشوائب وثقافة تدور في كل الشؤون و لشجون واجتماعيات وأخلاقيات وسياسات تنطلق بتجارب الحياة وضوابط ومعايير الإسلام التي تنبع من نصوص القرآن، الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة المحفوظ بحفظ الله لذي أنزله على رسوله ـ ﷺ ـ بشيراً ونذيراً مع هاتين الوسيلتين الفعالتين يسهم علماؤه وطلاب العلم في أرجائه وأروقته في اللقاءات الثقافية في ربوع العالم، فهم يشاركون في المؤتمرات المتنوعة في أماكنها وموضوعاتها علماً وعملاً، ولقد تكاثرت وفود طلاب العلم على الأزهر باعتباره الجامع والجامعة وصاحب الأثر

لماهر الحالد الذي صاحب الزمان في عشرات القرون، ما فترت همته عن أداء رسالته وما غاب عن قومه بل عن أمته الإسلامية في شتى مواقع شعوبها، فهو معهم على أرضهم بأبنائهم الذين عادوا إليهم بعد أن تزودوا منه وفي رحابه بالعلم والثقافة الدفعين، وهو مع كل هذا يسعى بمعاهده وكليات جامعته وعلمائه إلى كافة أنحاء الأرض في المراكز الثقافية وفي الجامعات والمعاهد العلمية إيماناً بأن بني الإنسان إنما ترتقي معارفهم بحوار الثقافات والمعارف.

قوة الأمة في وحدتها

إن اله ـ سبحانه ـ جمع أمة الإسلام على قبلة واحدة وفروض معدودة في أوقات محدودة، ليكون ذلك منهجًا لهذه الأمة تحتذيه في كل أمورها. ووجههم إلى هذا في العديد من آيات القرآن مثل قوله ـ سبحانه ـ

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[1]

وقد استقام أمر المسلمين وكانت لهم مكانتهم في هذه الحياة بين أمم الأرض، وأفادوا الدنيا بعلومهم ووضعوا دساتير الحكم وقوانين مستمدة من شريعة الإسلام فاستقامت بهم العدالة وتوفر الأمن والأمان. وكان الإسلام هو نسبهم وهو جنسيتهم التي بها يعرفون، وإن اختلفت لغاتهم وألوانهم، لأن ربهم قال لهم في كتابه

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2]

هكذا صنع الإسلام الأمة وبناها جسدًا واحدًا، بقلب واحد كما عبر رسول الله ـ ﷺ ـ في قوله "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر".

إننا نذكر ما رواه التاريخ في الفتنة التي وقعت بين المسلمين بعد مقتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ وافتراق الأمة شيعًا، يقاتل بعضها بعضًا، في هذا الوقت،

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات.

والنزاع على أشده بعث قيصر الروم إلى معاوية يعرض عليه مدداً في قتال علي بن أبي طالب.

فماذا كان جواب معاوية؟، مع أنه كان في حاجة إلى المدد والسند. قال لقيصر كلمة نحن في حاجة إليها الآن "لا حاجة لنا إلى شيء مما قلت. فإما كففت وانصرفت، وإلا بعثت إليك بجيش أوله عندك وآخره عندي حتى يملك به صاحبي ما تحت قدميك".

بهذا كان الخلاف بين الرجال المسلمين، لا يستنجدون بعدو على أمتهم وإنما كانوا رجلاً واحداً إذا أحاط بهم السوء نسوا خلافاتهم وأماتوا ما بينهم من نزاع ووقفوا صفاً واحداً وقلباً واحداً، يدفعون عن أمتهم وعن أمنهم وسلامتهم حماية لدينهم الذي ارتضاه لهم ربهم.

وها هم المسلمون اليوم في شتات بعد أن ظهرت بينهم العصبيات والشعوبية. ولقد كشف لنا رسول الله - ﷺ - في حديثه الشريف هذه الحالة، فقال "يوشك أن تتداعى عليكم الأمم، كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها". قالوا "أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال "بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليلقين في قلوبكم الوهن" قالوا "وما الوهن يا رسول الله؟" قال "حب الدنيا وكراهية الموت"[1].

نعم هذه أرض المسلمين تنتقص من أطرافها، فمنذ بضع مئات السنين وفي غمرة الشقاق والنزاع بين حكام المسلمين، ضاعت الأندلس. وفي عصرنا هذا، ونحن شهود ضاعت فلسطين، ونحن من حولها نتنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور. لكل من ينصح أو يذكر بالوحدة. واتخذوا لهم قبلة غير قبلة المسلمين،

---

(١) سنن أبي داود.

واحتموا بأعدائهم، بل واتخذ كل لنفسه سنداً وظهيراً ينتسب إليه، فانحل رباط الأمة، وتفسخت أوصالها وتحاربت جنودها.

إن الدين عند الله الإسلام، وإن رسولنا محمداً - ﷺ - قال "الدين النصيحة" قالوا "لمن يا رسول الله؟" قال "لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم".[1]

وها نحن ننصح أمة المسلمين شعوباً وحكاماً، أن ينزعوا الغل والخصام من قلوبهم، وأن يتجاوزوا هذه الخلافات والمنازعات، وأن يكونوا يداً واحدة، وقلباً واحداً، وأن يجتمعوا على مائدة القرآن وعلى شرع الإسلام يقول الله عز وجل

((وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ))[2]

كونوا على قلب رجل واحد، فإن الله - سبحانه - قد هيأ لهذه الأمة كل سبل الوحدة، كما قلت لغة واحدة، وقرآناً واحداً، وقبلةً واحدةً، وعادات واحدة.

فكيف تتفرقون حتى يتخطفكم الناس من حولكم؟ كيف تتنازعون حتى استأسدت الجرذان والخفافيش التي كانت تعيش في الظلام وفي تيه الشعوب الأخرى؟

إن مثلا واحداً قريباً لابد أن نذكره ونستعيده، ذلك هو حرب رمضان (أكتوبر ١٩٧٣).

لقد كانت وقفة العرب مجتمعين لها وزنها وقدرها بين شعوب الأرض حتى أحس كل الطغاة أن العرب أمة لها وزنها في تسيير دفة هذه الحياة. إن لدى العرب المال والرجال والزراعة والتجارة ومعهم كل أسباب القوة المادية، وقبلها قوتهم الإسلامية.

---

(١) مسند أحمد عن ابن عباس.

(٢) من الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

فعلى العرب أن يذكروا وقفتهم القريبة في حرب رمضان، وليرفعوا رايات السلام فيما بينهم ويمدوا حبل المودة والمحبة والإخوة، وليعتصموا بالوحدة التي وهبهم الله عناصرها:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾[1]

بهذا يعودون أمة مهابة، تحمي نفسها، ويرتفع قدرها، فإن عالم اليوم لا مكان فيه للضعفاء. إننا نرى الدول الغربية التي لا رابطة بينها تترابط وتتكتل في مجموعات سياسية واقتصادية مع اختلاف لغاتها، وتباين عاداتها، فما بالنا وقد توافر لدينا كل أسباب الوحدة، نتجاوزها مستبدلين بها الفرقة والاختلاف.

يقول الله:

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[2]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران.

(٢) الآية ١١ من سورة الرعد.

الفهرس الموضوعي

عربية للطباعة والنشر
٧-١٠ شارع السلام أرض اللواء المهندسين - تليفون ٣٣٥٦٠٩٨١ - ٣٣٥٦١٠٤٣